الروحاني
أشرف الخضري
قصص قصيرة

إنتاج المركز المصري

توزيع ميم للنشر والتوزيع

المشرف العام : ميرنا بكر

ISBN 978-977-6197-78-7

رقم الإيداع

٢٠٢١/١٣٢٣٨

اَلرُّوحَانِيُّ

قصص قصيرة

أشرف الخضري

«عُرْيَانًا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَعُرْيَانًا أَعُودُ إِلَى هُنَاكَ.
الرَّبُّ أَعْطَى وَالرَّبُّ أَخَذَ، فَلْيَكُنِ اسْمُ الرَّبِّ مُبَارَكًا». "

سفر أيوب.

الْفَلَّاحُ

خَرَج الْمُنَادِي عَلَى ظَهْرِ حِمَارِه وَطَاف شَوَارَع الْعِزْبَة وَأَخْبَرَ النَّاسَ أَنَّ الْحَدِيدَ تَكَلَّم .

تَوَافَد الفَلاحُون والصيادون لِأَكْثَر مِنْ أُسْبُوعٍ عَلَى مَقْهَى عِيد، لِمُشَاهَدَةِ الْحَدِيد الَّذِي يَتَحَدَّث، وَاسْتَغْرَق الْأَمْرُ شُهُورًا حَتَّى اِقْتَنَع النَّاسُ أَنَّ الرَّادْيُو اخْتِرَاعٌ عَبْقَرِيٌّ، يَنْقِلُ أَصْوَاتَ المطربين وَالْمُقْرِئِين والإذاعيين عَبْرَ الْهَوَاء لِلْأِسْمَاع .

يَوْمِهَا كَانَ حَسَنٌ كميج، الْفَلَاحُ الْأُمِّيّ ابْنُ الْعِشْرِينَ، الضئيلُ كعنزة ، وَالْجَمِيلُ بِشَعْرِه الْأَصْفَر وَعَيْنَيْه الخضراوين، شَاباً مَجْهُولًا حَتَّى لِأَقَارِبِه مِنْ الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ .

وَذَات صَبَاحٍ خَطَرَت لَه فكَرِة.

حَمَل كِيس سَكِر، وَجَلَسَ عَلَى حَافَّةِ مَصْرِف الْمَاء الْعَذْبِ، وَظِلّ يُذَوِّبُ السُّكَّرَ فِي الْمَاءِ بِيَدَيْهِ .

- مَاذَا تَفْعَلُ ؟! سَأَلْتُه زُبَيْدَة ابْنَةُ عَمِّهِ .

- أُحَلِّي مَاء الْمَصْرِف ليصلنا حُلْوًا !

زُبَيْدَة الَّتِي تَصْغُر حَسَنَاً بِسَبْعَة أَعْوَام، مِنْ أَجْمَلِ بَنَات الْعِزْبَة، وَجْهَهَا جَمِيلٌ أَبْيَض، خَضْرَاء الْعَيْنَيْن ويتماوج شَعْرُهَا الغزير بَيْن لَوْنَيْن، بني وأصفر، وَكَانَت نحيلة وَقَصِيرِة ومتناسقة التَّفَاصِيل، وَمُنْذ بَلَغَت تِسْعَ سِنِين أَحَبَّت حَسَنَاً وَتَعَلَّقَتْ بِهِ، دُونَ أَنْ يَنْتَبِهَ هُو لِهَذَا الْحَبّ، رَغَم أَن زُبَيْدَة قَضَت أَغْلَب سَنَوَات طفولتها وصباها فِي بَيْتِ حَسَنٍ، وَأَحَبَّت زَوْجَة عَمّهَا وَهِي أحبتها، وَغَسَلَت وطبخت وخبزت ونظفت، كَأَنَّمَا كَانَتْ ابْنَةً لِامْرَأَتَيْن .

كان الماء ينبع من مضخات حديدية، ذات ذراع حديدي يعمل كمضخة، يتجمع الرجال والنساء والأولاد والبنات، ويملأ كل واحد منهم آنيته النحاسية، وخُيّل لحسن أنه عندما يضع السكر في المصرف، سيصبح الماء حلواً في كل مكان، أحب أن يفعل شيئاً جميلاً للبط والإوز والكلاب والبشر. لكن الحادث أصبح حديث العزبة، واشتهر حسن وصار رمزاً للعبط والطيبة والخلل العقلي الطفيف، وسبباً لإضحاك الناس وحكاياتهم الساخرة.

كانت أمه فضة، فلاحة بارعة في صناعة الخبز الكميج المعجون باللبن، وذات صباح في صباه، أعطت لأولادها السبعة كل واحد رغيفاً، وكان رغيف حسن أصغر حجماً، فغضب وبكى وشكى أمه لنساء العزبة، ومنذ ذلك اليوم التصقت به كلمة كميج.

دخل السينما للمرة الأولى بعد أن أقنعه ابن عمه وأخذه معه، وضع المخرج كاميرا على منتصف السكة الحديدية، ثم ظهر القطار وهو ينفث البخار ويُدوي صوتُه، وانطلق في مواجهة جمهور السينما، لكن حسن قفز وصرخ وجرى في العتمة ناحية الخلف.

- غيتونا يا ناس القطر هياكلنا!

وفي المرة الثانية رأى حريقاً هائلاً داخل الفيلم، فحمل دلو ماء توضع فيها زجاجات كوكا كولا وحاول إطفاء الحريق!

وضحك الناس في القاعة وأصبح حسن شخصية ساخرة معروفة.

كان يعمل فلاحاً أجيراً، يركب حماره الأبيض في الصباح الباكر ويذهب إلى غيط الحاج شبانة، ويصلي الظهر والعصر في الأرض، ثم يرجع إلى بيته.

حسن الطيب العفوي البدائي، لا يعرف أحقاداً ولا حسداً، لا يغار من أحد، لا يشغل باله برزق أحد من أهل العزبة، يؤمن بالمثل الذي حفظه عن أبيه، لو كان الرزق بالتعب لنام الحمار على الذهب.

كان يعتني بحماره كأخ، يحممه في المصرف بقطعة لوف، ويضع له طعامه وماءه قبل أن يأكل هو، يتحدث معه كما يتحدث مع أي شخص في العزبة، وكان الحمار يهز رأسه، كأنه يفهم كلماته، فيرضى مرة ويعترض مرات، وكان حسن يغضب إذا شاكسه أحد أبناء الحارة وقال للحمار: زررررر وعندها ينفجر الحمار في البكاء، وكان يسأل العجائز من الرجال والنساء عن سر بكاء الحمير عندما تسمع كلمة " زرررررر" وأفضل إجابة حصل عليها كانت من فلاح عجوز أخبره أنها لابد أن تكون كلمة في لغة الحمير تثير الحزن في قلوبهم والخوف، ولم يحدث أبداً أن أسمع حماره الطيب هذه الكلمة المؤذية، ويتحدث معه ويرجوه ألا يعض أحداً ولا يرفسه وأن يحتمل الأذى لأجله.

كانت روحه روح طفل. قلبه متسامح وأبيض، إذا تعرض لظلم أو إساءة أو إهانة، يرفع رأسه للسماء ويقول: أنت وكيلي. وعندما يضع رأسه على الوسادة بعد صلاة العشاء يستغرق في النوم، فلم يكن يفكر في غنى الناس وفقره، ولا ضعفه وقوتهم، ولا يشتهي الانتقام ممن أساء إليه إذا تغير الحال ورفعته الأيام كما رفعت كثيرين من أهل العزبة.

الأرض شاسعة والبيوت معدودة، والنخيل واللون الأخضر يسيطران على المكان، النيل يبعد مسيرة خمس دقائق عن بيت أبيه الواسع ذي الطابق الواحد، والعصافير تعمل كمنبه ساعة جميل لا

يتأخر ولا يتعطل، فتوقظ زقزقتها الشجية الناسَ والشمسَ وأراضي الأرز والبرسيم والذرة، وتبدو الشواشي الذهبية على قناديل الذرة مصابيحَ في نور البدر.

أحيانا يُفطر برغيف مع كوب لبن جاموسي، وأحيانا لا يجد سوى الخبزِ وأعوادٍ من السريس الأخضر، ويسمي الغداء عَشاءً كعادة أهل العزبة، يأكل يوماً لحماً ويسميه عيداً، لكن أغلب الأيام يأكل السبانخ والبامية والملوخية والعدس والفول النابت والبطاطس المدفونة في الأرز مع صيادية البصل، ويعشق المرغولة وهي ملوخية مجففة مع قطع البصل والطماطم والفلفل الحار، ويحتشد الأبناء حول طبلية الطعام ويجلسون على تربة نظيفة كنستها فضة قبل أن تملك حصيراً لتفرشه على الأرض، وتدخر بيض الدجاج الذي لا يحمل بذرة الديك، وتخبز أرغفة البيض في الفرن الطابون الذي علمت حسن أن يبنيه بيديه، ويحصل على أجر معتبر من هذه الحرفة الصغيرة، ولأنه قصير وضئيل كثعلب، احترف تقليم أوراق النخيل وتلقيح الشجر المؤنث بطلع النخل المذكر وجمع البلح.

وكانت الأيام تمضي بحلوها ومرها دون أن ينتبه حسن لمرورها، لكن أباه أيقظه بأنه حان وقت الزواج لأنه بلغ الرابعة والعشرين وهذا تأخر شاذ عن طبيعة الناس، فالبنت تتزوج في الرابعة عشرة والشاب في العشرين.

بكت زبيدة وكرهت الحياة فجأة، لما تيقنت أن حسن أحب واختار ابنة خالته، فشلت أمه في إقناعه باختيار زبيدة وقالت له ألف مرة: تزوج التي تحبك ولا تتزوج التي تحبها، لكن هوس حسن بفريال أعماه.

كان يؤمن أن الأرض أمه، رغم أنه أجير فيها. وتقبل برضا بقاءه في البيت بدون عمل لعدة أشهر، لأن زبيدة ابنة عمه، عملت له عملاً بوقف الحال، وقبل فرحه بأسبوع عملت له عملاً بالربط.

زبيدة كانت تساعد زوجة عمها في الخبيز والغسيل، تعلق قلبها بحسن منذ الطفولة، لخفة دمه وطيبته وتناسق بدنه مع حجمها الضئيل، وبسبب الرجفة التي تهز كيانها حين تراه ويتحول وجهها إلى جمرة، إن مست يده، وكان يشعر أنها أخته ولا يراها امرأة للحب والزواج.

مكرت لزوجة عمها، فكت الخياطة في ذيل جلباب حسن المتعرق، وقصت قطعة قماش بحجم ربع كفها، وأخذتها وذهبت بها لساحر في عزبة مجاورة برفقة صديقتها ميرفت التي تعمل في مصنع الغزل والنسيج الجديد في المدينة، بعد أن أوهمتها أنه سيكره فريال ويصبح ملكاً لها!

رحب الساحر الوسيم الطويل الأربعيني بالجميلتين، وقدم لهما عصير مانجو مختلطاً بقرع عسلي، وحلوى البقلاوة، وتعامل معهما برقة وذوق كطبيب، وقال: إكراماً لكما سآخذ جنيهين!

لكن لم يكن بحوزة زبيدة سوى جنيه واحد فقط، ادخرته خلال سنة، وقبل الساحر، وكانت عيناه تكتبان على وجنتيها كلاماً مفترساً، لأن الفتاة التي لم تغادر العزبة من قبل، أعجبتها أناقته ووسامته وسحره الخاص، ولاحظ هو بسهولة نظراتها المعجبة العفوية.

- لماذا تريدين ربط حسن يا زبيدة؟ قال الساحر ونظر في عينيها.

- أنا أحبه وفضل فريال واختارها وأحرق قلبي.

- سنعمل له الصالح لا تحزني.

ثم تجاسر الساحر ومس كتف زبيدة برفق، فارتعدت وانتفضت وأرجعت نصفها العلوي للخلف وأحست برهبة وقلق، وبعدما انتهى من الكتابة بحبر زهري على ورقة، وقرأ بعض الكلمات، ذوب الورقة في كوب ماء ألومنيوم كبير، ثم نقل الماء لزجاجة، وأفهمها أن ترش الماء على عتبة بيت حسن ليمر فوقه، وعندها سيتم المراد.

انصرفت زبيدة مع ميرفت، ووصفت لها مشاعرها التي التهبت عندما مسها الساحر الوسيم، وأنها كانت خائفة جداً.

ضحكت ميرفت وقالت لها: يبدو أنه سقط في غرامك يا قمر، وأسرعتا الخطى، وركبتا عربة خضار يجرها حمار مع فلاحات وفلاحين.

ظل حسن محبوساً عن زوجته ثلاثة أشهر، وظن هو وزوجته وأهله أنه لا يصلح للنساء، وندمت زبيدة عندما رأت بكاء إخوته وأمه.

كان يجلس على ضفة المصرف ويدلي قدميه في الماء ويطعم الإوز والبط، وحين جاءت عينا زبيدة في عينيه وجدت شيئاً جميلاً في روحه قد انطفأ وأحست أنه رجل عجوز حزين منكسر.

ذهبت زبيدة للساحر برفقة ميرفت، وطلبت منه فك السحر، رحب بهما وأحضر لهما عصير التوت الأسود وحلوى البسبوسة، ورغم أن زبيدة أحست بوجود مودة وتواصل خفي بين صديقتها والساحر، تجاهلت إحساسها.

كان واجب ضيافة الساحر يسيل لعاب الفتاتين، رغم نصائح الأمهات للبنات خاصة وللأولاد بعدم أكل أو شرب أي شيء لدى الأغراب.

أكلتا وشربتا، وطلب "زبادي الساحر" أضعاف المبلغ الذي أخذه في المرة الأولى، ولأن الصدمة صعقت زبيدة لضخامة المبلغ، أحست أنها تورطت في عمل حقير وقذر، خاصة عندما راودها الساحر بكلمات ثعبانية متحفزة، مقابل فك السحر، لكنها رفضت وغضبت وهمت بالانصراف.

أقنعهما بالبقاء، وطمأنتها ميرفت، أوهم زبيدة أنه سيفك السحر مجاناً لأجل خاطرها، ولم تمر عشرون دقيقة، حتى مالت ميرفت

برأسها على كتف زبيدة، ومالت بها زبيدة على الأريكة، وسكرتا سُكراً شديداً.

شعرت زبيدة أن أعصابها مفككة، لا تستطيع رفع يديها لتبعد الساحر عنها، وبكت وهي تهيم بين اليقظة والأوهام وأنياب الساحر. .

وعدهما الساحر أنه لن يعرف أحد ما حدث، لطمت وبكت وانهارت وارتعبت، لعنت الساحر وسبته وضربته بيديها على صدره، وبدت أمامه كعصفورة أمام دب ضخم، ثم انهارت وسقطت على الأرض. واستها ميرفت وفي عينيها فرحة وشماتة وابتسامة أفعى.

خرجت من بيت الساحر لا تصدق ما جرى. قالت لميرفت: سيذبحني أبي، لقد انتهيت.

- لا ينبغي أن يعرف أحد ما جرى أبداً يا زبيدة، مفهوم؟

- لقد أخذ شرفنا يا ميرفت.

ثم بكت ولطمت وجهها عدة مرات، لكنها أفاقت قليلاً عندما فهمت أن ميرفت لم تكن عذراء مثلها! وخطر ببالها هاجس فظيع . .

عاد حسن لطبيعته، وعادت الفرحة الغائبة لروحه المسالمة، بعد أن داس على ماء مرشوش على الأرض.

ظلت زبيدة ترفض كل العرسان الذين تقدموا لخطبتها، وتحير أهلها في حالها وظنوا أن امرأة من أهل العزبة عملت لها عملاً بوقف الحال، وذات يوم أخبرتها ميرفت أن الساحر هزمه الشوق، فتيقنت مما أحسه قلبها، لكنها كتمت غضبها في صدرها كي لا تتعارك معها في البيت ويفتضح السر.

الشمعة التي انطفأت في عينيها لم ينتبه لغيابها أحد، لكن حسن كان شفافاً، سألها مرات ومرات، مرت أعوام عديدة وحسن يسألها عن حزنها الخفي المتوهج كجمرة، قبل وفاة أبويها كان الحزن كبيراً، وبعد الفراق ظل يتعاظم ويغشاها كظلمة.

فريال أقنعت حسن أن يبني بيتاً لأولاده الكثيرين على قطعة أرض ورثها عن أبيه، وكانت فكرة أن يملك بيتاً خاصاً به فكرة مستحيلة التحقق.

ظلت الزوجة تدخر كل قرش أبيض لأجل الأيام السوداء والأيام الرمادية، وكانت (قمائن) الطوب التي أقامها مسعود الشرقاوي في العزبة تداعب خيال الفلاحين لبناء بيوتهم من جديد بالطوب الأحمر المصنوع من طين الأرض، رغم أن مشهد الأرض المجرفة السوداء كان بشعاً وغريباً على أشخاص اعتادوا رؤية الأرض خضراء يانعة.

بدأ بشراء ألف طوبة، وخلال سبعة أعوام صار يملك أربعة جدران وسقفاً من الأخشاب.

انتقل للسكن في البيت الجديد مع أولاده ولم تكن للغرف أبواب، وعلى الحمام ستارة وأمام باب البيت زير ماء من الفخار بكوب ألومنيوم، وأقام تعريشة من أغصان الكافور للحمار تحميه من الشمس والمطر.

عندما أنشأت المحافظة أول مدرسة في المدينة كان أكبر أبنائه قد تجاوز العاشرة، ولم يحب أبناؤه كتاب الشيخ فخري، لأنه يستخدم عصا خيزران رفيعة ولا يتساهل مع أغبياء، وكبر الأولاد كأبيهم، يحملون أختاماً نحاسية ويبصمون بالإبهام. .

حسن الذي صنع فضيحة لأمه لأنها أعطته رغيفاً أصغر، كان يحرص على المساواة والعدل بين أولاده حتى في عدد حبات العنب، ولأنه أنجب عشرة أولاد وست بنات، أصبح يشبه نخلة مثمرة لم يصدق أحدٌ يوماً أنها خرجت من نواة بحجم حصاة صغيرة.

كبر أولاده وبناته وشاخت زبيدة قبل أوانها، هدها الحزن والمرض، والوحدة، وكان حسن وزوجته وأولاده يهتمون بها كواحدة من العائلة.

ذات ليلة جاء حسن بالممرض الذي يعمل حلاقاً بجانب عمله في مستشفى الحميات، ليفحص زبيدة، كتب لها شربة ملح إنجليزي وأوصاه بعمل مشروب ينسون وليمون وأعطاها حبات كسبرة

مجففة، ووضع كمادات على جبينها وبطنها، وأعطاها حبة خافضة للحرارة، وهو يظن أن حسن زوج زبيدة.

ابتسمت برضا وكأنها فرحت لأول مرة في عمرها لهذا الفهم الخاطئ، جذبته وهمست في أذنه، طلبت منه السماح عن جريمتها في حقه، لكنه بكى لأجلها ولم يشعر بغضب تجاهها، بل أراد أن ينتقم لها من الساحر المجرم.

"أنت ضعيف ومسالم، ماذا ستفعل؟ هل تجمع الأقارب وتذهب للانتقام وتفضح زبيدة؟ هل تبلغ الشرطة؟ " عض يده من الحزن وهو يحدث نفسه، فكر أن يحمل سكيناً ويكمن للساحر ويقتله، لكنه لم يكن يستطيع أن يرتكب جريمة، لم يذبح دجاجة بيده، يكره لون الدماء وترفض نفسه بالفطرة مظاهر العنف والقسوة، جلس يبكي ويتأمل حاله وعجزه وتردده، ثم قال لنفسه: لينتقم الله لي ولزبيدة. وظل يدعو الله طوال شهر بعد وفاتها وكتم سرها.

زبادي الساحر ظن أن كل الطير يُؤكل لحمه كزبيدة المسكينة وميرفت المستهترة، وكرر جريمته مع فتاة أخرى، وكان الثمن الذي دفعه، فصل رقبته عن جسده في صالة بيته.

بعد مجيء الشرطة وإغلاق المحضر ضد مجهول صدر تصريح الدفن، وخرج ستة أفراد فقط من عائلته في جنازته، فتحوا القبر فاشتعل ناراً، ذهبوا به لقبر آخر فاشتعل ناراً، ولما كرروا التجربة وتكررت النيران، قذفوا الجثة في النيل، وانتشر الخبر.

ذهب حسن لقبر زبيدة وطمأنها وقال لها: استريحي. . وحكى لها ما جرى.

جرت السنوات به حتى تجاوز سبعين عاماً، وكان ما يزال عفياً ونشيطاً ويأكل من عمل يده، رغم أن أولاده ملأوا البيت خيرا.

تغدى خبزاً ومشاً وسريساً أخضر، أكل بلحاً أسود، شبع وشرب وهنأ راضياً برزقه القليل، صلى العصر في الغيط، ركب حماره عائداً إلى البيت، وفي منتصف الطريق، انحنى للأمام خلف دماغه الذي تهاوى للأسفل، سكت نبضه وتدلى ذراعاه على صفحتي عنق حماره، ثم تهاوى إلى الأرض.

تجمع بعض الفلاحين، غمرهم الخجل، لا أحد منهم يعرف بيت حسن، فاقترح عبد الجواد أن يضعوه على ظهر الحمار، فكثيرٌ من الحميرِ لا تضلُ الطريق.

سار حماره به ناحية البيت في ثقة وثبات وبطء، كأنه علم أن رفيقه تركه وحيداً، وسار الفلاحون خلفه، وصل إلى باب البيت ونهق نهيقاً باكياً متواصلاً، خرجت زوجته وأولاده، وبعد صلاة العشاء دفنوه على نور مصابيح الكيروسين والمشاعل، وسار حماره في جنازته، وكان الناس يترحمون عليه ويقولون: أضحكنا حياً وميتاً، هل هذا حمار أم بني آدم؟!

لكن الحمار رفض مغادرة المقبرة، واقتاده أولاده رغماً عنه إلى البيت.

ظل الحمار حزيناً عدة أيام، لا يأكل ولا يشرب، وفي يومه الأخير قطع الحبل وذهب لقبر حسن، طوال الطريق شاكسه الأولاد وقالوا له: زرررررر فبكى بحرقة وقرر أن يرفس ويعض كل من يعيق طريقه لزيارة قبر صديقه أو يسمعه كلمة زرررررر.

الخلاص الأخير

على شجرةِ جارنا الطيب، تفاحةٌ حمراءُ ناضجةٌ وحيدةٌ، أتأملها كل يومٍ من شرفة شقتي الأرضية، لأطمئن أنها لم تسقط بعد، من الصباح حتى يعتم المساء. وذات صباح مشمس شردت مجموعة من أبقار البدو ومكثت في ظل شجرة التفاح الوحيدة، بعدما شبعت من حشائش الحديقة الخضراء وعشبها الرطب.

جاء شابان يرتدي كل منهما جلبابا رماديا وعمامة، وَنَادَيَا الأبقار فقامت وسارت خلفهما في طاعة وتفهم كآدميين.

كان الروث أكواماً تحت الشجرة، شعرتُ أن التفاحة ستهوي وسط الروث في أي لحظة، كنت أتخيل غصنها يتدلى بها للأسفل بإصرار وبطء. لم أستطع منع نفسي، سنواتي العشرون عجزت عن منحي الحكمة اللازمة والصبر. تسلقتها بعناء واحتراف وقطفت التفاحة الناضجة. كنت أتلفَّتُ يميناً ويساراً لأتأكد أن أحداً لم يرن ي.

دعكتها دعكاً في قميصي الأبيض فتركت فيه سواداً باهتاً ولم تترك من لونها الأحمر في قميصي أثراً.

تأملتها وطاوعتني نفسي . . فالتهمتها ومضيت.

مرَّتْ أعوامٌ عديدة، خلع جارنُا الطيب شجرة التفاح بعدما شاخت ولم تعد تثمر، وأنشأ في الحديقة مسبحاً رخامياً ومهَّد عشبها الأخضر بالجرانيت والأحجار الملونة والأصداف.

الشجرة العتيقة بلغت محطتها الأخيرة كعمود خيمة للبدو المعسكرين على أطراف القرية، وفي ترحالهم الموسمي أخذوا قماش الخيمة وتركوها وحيدة جرداء.

رغم مرور السنوات كان جاري الطيب يسألني دائما عن تفاحته الضائعة . . وأنا رغم استهتاري كشاب مراهق لا يبالي لم أغفر لنفسي تلك الخطيئة.

كان ندمي يكبر كل يوم كشجرة لبلاب تتعاظم حتى منعت ضوء الشمس من دخول غرفتي الواطئة.

وفي صباح بارد ماطر، شردت أبقار البدو.

لم أصدق ما أراه. الأبقار تحاصر سريري من كل الجهات، ولم يحتمل باب شقتنا الأرضية سوى نطحات محدودة أسقطته على الأرض وخلع قلبي صوت ارتطامه المخيف.

حاولت أن أنتفض من سريري لأهرب لكنني تجمدت كأنني شجرة جميز قديمة غاصت جذورها في عمق الأرض.

كان الأمر أشبه ما يكون بتنسيق واتفاق بين البهائم الخرساء.

وبينما كنت أرتعد رعباً، استدارت الأبقار ووجهت ذيولها تجاه رأسي وانهمرت فوقي حمم الفضلات حتى غطت جسدي تماما.

بصعوبة ومشقة وأنا أشعر بالأسى والقرف ، زفرت ونفخت لأتمكن من التنفس.

غادرت الأبقارُ غُرفتي في نظامٍ وهدوءٍ عندما صدحت أصواتُ صفافير بالخارج استجابت لها وتركتني في وحلي القذر الكريه.

رغم بقائي في حوض الاستحمام لساعات طويلة واستنزافي عبوات الشامبو جميلة الرائحة، ظلت رائحة الروث في أنفي ومسام جلدي لسنوات متعاقبة.

صرت أذهب كل صباح إلى شجرة التفاح الجرداء المنصوبة كعمود خيمة، وأنا أتشمم رائحتي التي جعلت أهل القرية والكلاب والقطط والعصافير ينفرون مني حيثما تواجدت.

عرافةُ البدو رَأفَتْ لحالي وهيئتي وعزلتي التي تتضخم يوما بعد يوم.

ولمَّا كشفتُ لها سر التفاحة .. التي أكلتها منذ سنين. قالت لي: عليك أن تشتري سلامك الداخلي من جارك الطيب. كنت أنصت إليها باهتمام رافضاً تماماً للفكرة التي أعجز عن تنفيذها، وأنا أنتبه لأول مرة لذلك البئر العميق الذي حفره البدو لتخزين مياه المطر وغرق فيه طفل صغير وحدث هرج كبير ولم يستطع أحد أن ينقذه. مرت أسابيع وأنا أحاول أن أجد خلاصاً لعذابي، لكنني كلما نظرت للنجوم الطافية على صفحة ماء البئر، تمسكت بالحياة الكريهة التي أحياها تحت وطأة عذابي المقيم.

كان خلاء المكان بعد ارتحال البدو يمنحني وقتاً طويلاً كل ليلة لتجربة الخلاص الأخير. وفي ليلة مقمرة كبرت الفكرة بداخلي وقررت أن ألقي نفسي في البئر لأنهي مأساتي المعذبة.

اعتليت حافة البئر العالية ونظرت للقمر الكامل في صفحة الماء، كنت أرتعش بكل ذرة في كياني، وبدت قدماي كحجرين ملتصقين بأحجار البئر. انهمرت دموعي وانتحبت كطفل يتيم مطرود. وعندما شعرت بهواني الكامل وضياعي استجمعت شتاتي وقررت إسقاط نفسي. أخرجني من صمت الليل المقمر صوت كروان، مر أمام عيني بطيئا وعبر فوق شجرة التفاح العتيقة.

أذهلني ما رأيت، قفزت إلى الأرض ومشيت مسرعاً باتجاه الشجرة، كانت تفاحةٌ حمراءُ لامعةٌ كدُرَّةٍ من الياقوت تُضيءُ في نور القمر على غصن أخضر على الشجرة التي ماتت لسنين طويلة. تسلقتُ الشجرة كقرد نشيط وأنا مأخوذ بالفرحة العارمة وجرى ريقي وتفتحت شهيتي لالتهام التفاحة التي أنقذتني في اللحظة الفارقة بين الموت والحياة.

محكمة

في الساعة الثامنة والنصف خرج وجدي المر حافياً من مدخل العمارة السكنية التي يسكن في طابقها الخامس في شقتين متقابلتين مفتوحتين على بعضهما البعض.

عبر الشارع الواسع في الفانيلا الحمالة البيضاء والشورت الأبيض الذي يبلغ منتصف فخذيه، لم ينتبه لآلة التنبيه المدوية لسائق التاكسي الذي ضغط فرامل السيارة قبل أن يصدمه .

رفع السائق صوته بكلمات نابية مندهشاً من خروج رجل كبير يبدو من شعره الأشقر الشائب أنه على أبواب الستين.

استمر الرجل في سيره الواثق الهادئ باتجاه المقهى، كان صديقه الصحفي الشاب أمجد داود قد ترك فنجان البن وقال للسائق : حصل خير وصرفه.

مر بمنضدة صديقه ولم يعرفه وسحب كرسياً وجلس أمام طاولةٍ مستقلة وصفق بيديه واضعاً ساقاً فوق أخرى وطلب شيشة تمباك وفنجان بن سادة.

كان الجالسون في المقهى يحدقون في الرجل.

تركوا أوراق اللعب وقطع الدومينو والطاولة وصوبوا أعينهم في ذهول تجاه رئيس المحكمة الذي يجلس بملابسه الداخلية بينهم دون أي شعور بالحرج.

كان أغسطس يتوهج بالشمس والحرارة المرتفعة وفي الليل تزداد نسبة الرطوبة ويمتدُ جوٌ خانقٌ حتى يتلطف في الواحدة بعد منتصف الليل وربما يظل قائظاً لا تنفع معه أجهزة التكييف ولا الاستحمام المتكرر.

أشار الصحفي لرواد المقهى بيده أن عودوا لألعابكم ثم وضع يده على رأسه ملوحاً لهم أن الرجل ذاهل غير مدرك لما يجري.

علاقة أمجد به بدأت منذ كان وكيلاً للنيابة، يتسامران ويتناقشان في العديد من القضايا والأفكار، كان المُرُ يشعر في داخله أنه فوق الطبيعة البشرية، حتى عندما يندفع بسيارته الأوكتافيا يرجع رأسه للخلف في شموخ واستعلاء، كان الناس يرهبونه ويتحاشون التعامل معه، حتى في صلاة الجمعة، فئة قليلة كانوا يتوددون إليه ورغم خدماتهم وهداياهم لم يكن يقيم لهم أي وزن.

وجد في شخصية أمجد ذئباً شرساً معتزاً بنفسه، ورغم أن ثقافة وصراحة صديقه كصحفي كانت تستفزه، فضل أن يكونا صديقين بدلاً من عداوة ظاهرة لا أحد يعرف إلى أين ستذهب بهما. أخذه

أمجد للبحر، وعلمه صيد السمك، والهروب من سجن الوظيفة والمظهر الاجتماعي الخانق الذي يدمر صاحبه من الداخل ويحوله لبيت خرب.

أولاد وجدي المر فرقتهم الأيام والسفر، اثنان في المملكة وواحد في ألمانيا وابنته البكر تزوجت وسافرت لأمريكا، والابنة الصغرى مذيعة مغتربة في أبو ظبي.

رغم محاولاته المستميتة لإقناع أولاده الذكور بدخول الكلية الحربية أو كلية الشرطة، رفضوا وفضل كل منهم ما اختارته نفسه، وفازت الهندسة والتجارة والإعلام على رغبات الأب.

زوجته الطبيبة علياء فخري عاشت معه أسوأ أيام حياتها، ف المر الذي يبلغ طوله مائة وتسعون سنتمتراً، ذو العينين الخضراوين والشعر الأشقر والجسد الرياضي، كان قاسياً وسادياً، قهرها لسنوات وأهانها وأرهبها، ضربها مئات المرات بالحزام وبالركلات، أذلها ومنعها من حقها في الطلاق والعودة لحياة النوارس التي نشأت فيها في بيت أبيها أمام البحر.

مع ظهور علامات المرض على زوجها - بعدما خرج لمرات عديدة بملابسه الداخلية ليلا ، وتمت اعادته للبيت عن طريق فاعلي الخير الذين كانوا يلتقطونه كقط مشرد من الطرق الرئيسية - تَنَسَّمَتْ رياحَ البحر ورائحة اليود.

كانت الحيرةُ تعصف بالناس، فهو لا يحمل هاتفاً جوالاً ولا بطاقة شخصية ولا أي وسيلة تمكنهم من معرفة الرجل الوجيه الذي يبدو واضحاً لأي شخص ذكي أنه رجل مهم.

كانت الشرطة تتكفل بإعادته إلى البيت. في المرات الأولى وجدت الشرطة صعوبة في تحديد هويته، لكن بسبب خبرة المخبرين خصوصاً الذين عملوا في الحراسات السرية للشخصيات الهامة، تمكن عم عبده المخبر من نظرة واحدة أن يؤكد للرائد أكرم رضوان رئيس مباحث قسم الحميدي أن الرجل الذاهل هو المستشار وجدي المر.

والذي سهل على المخبر مهمته بعد مرور سنوات طويلة على حراسته السرية للذاهل عندما كان قاضياً في بداية حياته، أنه كان ينطق كلمة واحدة بصوت آمر فوق الدكة الخشبية في القسم هي كلمة : محكمة.

وجدي حقق شهرة واسعة كوكيل نيابة ذكي وشرس وقاس جداً، فقد تسبب في إعدام سبعة عشر شاباً قاموا باغتصاب زوجة شابة حسناء في فراش عرسها في اليوم الثالث من حفل زواجها، بعدما ذبحوا زوجها، وبعدما ظلوا منذ خروج الضوء الأول لقرابة الظهر يتناوبون عليها في بيت زوجها في أطراف المدينة قرب ساحل البحر ثم ذبحوها أيضا، وسرقوا مصاغها الذهبي.

لكن كالعادة وبينما يبيع أحد المغتصبين دبلة زواجها، وسلسلة ذهبية مميزة للذبيحة، أبلغ الصائغ الشرطة، واعترف سامح أفيون على رفاقه جميعاً.

وقف وجدي المر بنفسه على طبلية الإعدام ليشاهدهم يُشنقون واحدا وراء الآخر دون أي شعور بالقلق حيال المتهمين السبعة الذين لم يشاركوا في الجريمة سوى بالجلوس أمام البحر لمراقبة مدخل البيت ولم يشهدوا وقائع الاغتصاب أو القتل، فبينما عكف خمسة منهم على ابتلاع حبوب البريك أنول وتدخين البانجو، أضاع الأخيران الساعات في صيد الكابوريا بخشبة تنتهي بمسمار كبير.

تبول المجرمون في سراويلهم وبعضهم خانتهم أمعاؤهم، وفارقوا الحياة بروائح نتنة، بينما بكى السبعة كالأمهات المفجوعة على أطفالهن الغرقى، كان وجدي يودعهم بضرب كل واحد منهم على قفاه قائلاً له: تَلَقّى وعدك.

علياء عندما تيقنت تماماً أن زوجها قد انتهى ولم يعد يذكر من حياته سوى كلمة محكمة، جمعت ملابسها ومصاغها وعادت لبيت أبيها ونفضت الغبار وبيوت العنكبوت وأدخلت الشمس لغرفتها من جديد وتركت وجدي لمصيره المعتم.

بعدما أنهى وجدي المر جلسته مع الشيشة والبن، قام وسار باتجاه البحر، حاول صديقه ومعه آخرون اقتياده لشقتيه، لكن كلما

أصعدوه وأغلقوا الباب، نزل الشارع، وحينما غفلوا عنه تسرب قبيل منتصف الليل وسار للبحر.

كأنه كان يستشرف النهاية ارتدى روب أسود، ظل يحتفظ به لسنوات عديدة ليرتديه كمحام، لكن شاءت الأقدار وأسباب أخرى كمكانة عائلته ووسامته وتوصية سرية من عمه المستشار أصبح وكيلاً للنائب العام.

ظل يسير لأكثر من ساعتين، شاهده العشرات من الرجال والنساء في سياراتهم، وهو يمرق كالسهم مسرعاً حافياً بالروب الأسود.

وصل منطقة نائية بها أكوام من القمامة ومخلفات سوق السمك، وهناك تلقى وعده.

انتظرته مجموعة من الكلاب البلدية الصفراء ذات الأدمغة الكبيرة التي تشبه كلاب الدنجو.

هاجمته الكلاب فوراً، تمزق الروب الأسود، تلطخت الفانيلا البيضاء بالدم، بقرت الكلاب بطنه، اندلقت أمعاؤه ونهشتها الكلاب، صرخاته الذبيحة لم تصل أحدا، نزع كلب منهم محاشمه، صرخ صرخة هائلة، نظر للسماء المقمرة، لمعت في ذهنه الذكريات، تذكر توسلات الفقراء الغارمين الذين غيبهم في ظلمات السجن، تذكر القضايا التي مرت من تحت يده لإرضاء ضباط ورجال أعمال حطمت أسراً كاملة، تذكر طبلية الإعدام، عضه كلب آخر

وانتزع حلمة صدره اليسرى، صرخ بكل قوة بقيت فيه، تمنى الموت، رأى وجوه أولاده الخمسة، رأى وجه علياء والحزامَ الجلدَ في يده، وخرطومَ مياهٍ أبيضَ شفافاً يلمعُ بدمها المقهور، نشطت ذاكرته بقوة كأنه عاد أربعين عاماً إلى الوراء، هاجت الكلاب أكثر وبدأت تتصارع على الوليمة، تنازعوا يديه وقدميه، نهشوه حتى كاد يتمزق بين أنيابهم لخمس قطع.

دوت ثلاث طلقات نارية متتالية، وسقط الكلب الكبير الذي قاد المجموعة وهربت الكلاب مذعورة.

تقدم الضابط في ضوء سيارة الدورية الراكبة، سمع وجدي المر ينطق كلمته الأخيرة بطيئة ممزقة منسحقة : محكمة.

شُرْفَة الموت

اللحظات الأخيرة من حياة أنطون تشيخوف

حَطَّت حَمَامَةٌ بَيْضَاء عَلَى سِيَاج الشُرْفَة، و نَظَرْت إلَى دَاخِلِ الغُرْفَة ، وَأَخَذَت تَهَدِلُ وتهز رَأْسِهَا .

كَانَت أُولِجَا الْمَرْأَة النحيفة الممشوقة الَّتِي يَبْدُو وَجْهُهَا كوَجْهِ أَمْ أَكْثَرَ مِنْ كَوْنِهِ وَجْه زَوْجَة جَدِيدَةٍ فِي عَامِهَا الثَّالِثِ مِنْ الرِبَاطِ الْمُقَدَّس، تَجْلِس بِجِوَار سَرِير وَحِيدٍ فِي غُرْفَةٍ بمستشفى فِي أَلْمانِيا .

تَفْزَع وتنتفض وَتَشْعُرُ أنْ قَلْبها يَتِمّ انْتِزَاعَهُ مِنْ مَكَانِهِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يسعلُ فِيهَا زَوُجُهَا بِوَهَن وتغطي وَجْهَه الْجَمِيل غَمَامَةٌ رمادية. أَمَّا إذَا وَضَعَ مِنْدِيلُه الْقُمَاش أمَام فَمِه ، وَبَصَق فِيهِ قَطْرَات دَمٍ، فَكَانَت تَشْعُرُ أَن فَاسًا هَوَى عَلَى ظَهْرِهَا بِقُوَّة.

أُخِفْت توترها وقلقها، وَتَلَأْلَأَت حَبَّات دَمْعٍ حبيسة، نَهَضْت مِن مَقْعَدُهَا وَاقْتَرَبَت مِن السَّرِير ومسدت رَأْسَ زَوْجِهَا بِيَدِهَا بِحَنَان وَمَالَت عَلَيْه كَأَنَّهَا تتشمم أَنْفَاسَه، لتمنحه طَاقَة حُبّ وَإِخْلَاص،

وَقَالَت: ستتعافى يَا حَبِيبِي قَرِيبًاً ونعودُ إلَى بَيْتِنَا وأشجارنا وعصافيرنا .

نَظَرَ إلَيْهَا زَوْجُهَا الْمَرِيضِ وابتسم وَرَفَع يَدَهَا لشفتيه وَتَرَك قُبْلَة واهنة، نَظَرَ إلى الحمامة بتمعن وَرَهْبَة وَشَعْر أَن نِهَايَةَ الرِّحْلَة صَارَت أَقْرَبَ مِمَّا تَصَوُّر.

قالت أولجا: هل أزعجتك الحمامة البيضاء؟ إنها فأل جميل لهذا الصباح يا حبيبي.

لكن بوريس تريجورين زوجها ابتسم لها، ولم يقل شيئا، لأنه نظر إلى الحمامة مرة ثالثة وأخذ يفكر ويفكر وسأل نفسه سؤالا مرا أكثر مرارة من مرضه القاسي العربيد: لماذا ينبغي أن يموت الإنسان؟ ولماذا خلق الله الموت؟ وما الحكمة في أن أموت وأنا لم أعش بعد؟ ما الفائدة التي سيحصدها الرب من قطف زهرة حياتي وهي نضرة ويانعة؟

كان قد تخلى عن العزوبية منذ ثلاثة أعوام فقط، وقرر بعدما بلغ الواحدة والأربعين أن لا يخاف الوحدة ولا الزواج، وكم كان هذا القرار صعباً وفظيعاً بالنسبة إليه، فهو يكره الكذب والادعاء والسخافات، يكره حماقات النساء والتكلف المرضي الذي يمقته بقوة، يكره أن يعيش حياة مليئة بالنفاق والتمثيل والأكاذيب، ترعبه قسوة امرأة تعتبر زوجها الحبيب قفازاً بالياً، زوجها الذي كانت تتنهد على ركبتيه في غرامهما الأول وتعتبره مخلصها وأملها ونور

حياتها، لم يكن يريد أن يعيش التجربة المؤسفة، لم يكن يتمنى أن تكون لديه دموع لا يراها العالم، كأبطاله المتزوجين التعساء، لم يكن يريد أن يعيش مأساة إيفان إيليتش بطل رواية أستاذه العظيم.

لكن وربما لرحمة القدر أو سخريته فقد أفزعته كلماته التي كتبها حول بطله كلخاس الفنان المسرحي، الذي أكل المسرح حياته وأذاب شمعته فصرخ صرخة مدوية: أنا وحيد كالريح في الخلاء، بلا زوجة ولا أبناء، إذا مت لن يتذكرني أحد. وخوفاً من مصير بطله فعلها أخيراً، بعد إلحاح وتحفيز من أولجا، لكنه نبهها قائلا، أريد زوجة كالقمر، تغيب أياماً، تكتمل أياماً، تنقص أياماً، لا تحتل سمائي كل ليلة.

رأى تريجورين في السنوات الماضية، نظرات الأسى والشفقة والحزن الخفي في أعين أحبابه ، في عيني أمه وأخته الأقرب لقلبه، وفي عيني صديقه وأستاذه تولستوي، والرفيق العزيز مكسيم، وكانت الكلمات الصامتة في أعينهم تتحول إلى عبارة واحدة سوداء ومريرة، خسارة أن ينتزع الموت هذا الفنان العبقري من بيننا مبكرا.

عاد من شروده على أثر لمسة حانية من أصابع زوجته على خده، فقال لها برقة وذوق كعادته: أنت شمس حياتي، والتفت ناحية الشرفة لكن الحمامة لم تكن هناك.

نهض من الفراش وتماسك، ساعدته أولجا في ارتداء المعطف الأحمر الذي يحبه، وتحرك باتجاه الشرفة ببطء.

كان يحب اللون الأبيض والأحمر والأزرق، أحب قوس قزح، أحب الصدق والنقاء والبساطة والشرف، أحب الأشياء الحقيقية الملهمة.

كانت سعادته الكبرى، أن يرى إخوته سعداء، كان يمنحهم كل شيء يستطيع أن يقدمه لهم، نقوده القليلة، عطفه، حنانه، حبه الصادق الكبير، يفرح عندما يقدم شيئا ما لإنسان فقير أو تعيس، عندما يعالج الفلاحين البسطاء مجانا، حين يزرع بيديه شجرة توت أو شجرة ورد أو حور، أو يعد مأوى لكلب يهيم في الطرق، كان يمس بيديه أرضا خربة فتدب فيها الحياة.

خرج للشرفة، تحسس بأصابعه موضع الحمامة، نظر للسماء، ومرت أمام عينيه كل لحظة بؤس ومعاناة طويلة وكل لحظة فرح مرت كالبرق ثم اختفت كالعدم، كطفولته الغارقة في الأسى والشقاء.

وقفت أولجا وراءه ووضعت قبضتيها أمام فمها وأحست بانقباض في صدرها وحزن كبير، لقد ندمت أنها ألحت عليه للمجيء إلى ألمانيا، رغم تحذير الأطباء من خطورة السفر الطويل بالقطار، على حالته الصحية المتدهورة، توهمت أن الرحلة الشاقة ستنهي معاناة زوجها مع المرض، وسيتاح لها تركيب طاقم أسنان جديدا، الأمر

الذي سبب لها توترا وخجلا دائمين، أحست بخزي وندم لغيابها كثيرا عن غرفة زوجها المريض، أرادت أن تحقق بعض المتعة والتغيير لنفسها، وتعرض زوجها على أطباء أفضل، ويستمتعان بالسفرية، لكن خابت ظنونها، وساءت حالته أكثر كما توقع أطباؤه، أحبت أن تسأله هل أعد لك إفطارا، لكن سكتت وظلت تراقبه في صمت.

السُّلُّ أصاب تريجورين منذ سنوات وتمكن من رئتيه شيئا فشيئا، وها هو الآن في بادن فايلر في ألمانيا ربما تحدث معجزة غير متوقعة، الطبيب البارع والكاتب العظيم الشهير تريجورين، الذي عالج المرضى لسنوات يحتاج اليوم لطبيب ولكن الدواء عزيز وبعيد وغير مأمول.

كانت رحلته لجزيرة سخالين في أقاصي الشرق، رحلته المشؤومة، لقد انتقلت إلى روحه آلاف العذابات للمعتقلين والمنسيين والمنبوذين، الذين اعتبرتهم الإمبراطورية الروسية، نوعا من البشر لا يستحقون الحياة، فبنت معسكرات ضخمة معزولة، وشيئا فشيئا تحولت الجزيرة كلها إلى سجن كبير، وأحس تريجورين في لقاءاته العديدة مع سكان الجزيرة أنهم أشخاص بلا روح.

تنقل من مدينة لمدينة ومن قرية لقرية، ومن قطار لسفينة، لعربة تجرها خيول مرهقة، وقطع مسافة عذابات حقيقية من مدينة القباب الذهبية إلى الجزيرة، ليرى ويسمع ويشاهد ويعرف، ومن هناك عاد

الطبيب الشاب المليح الممشوق ذو الشارب واللحية الصغيرة بدائه القديم أشد شراسة وفتكا، وسكن رئتيه ونشر شعاع الأسى في عينيه العسليتين لسنوات.

اقتربت أولجا من زوجها وضمته من ظهره برقة، قالت: يوليو جميل في ألمانيا، قريبا نعود إلى جنتنا وتنير بيتك.

كانت أصابعها منسدلة كالستائر على كتفيه، نقل يده اليسرى ومس يدها على كتفه الأيمن، وهز رأسه وقال: قريبا يا حبيبتي قريبا.

حاول ابتلاع كلمة قريبا، تذكر بيته الأبيض الجديد الذي يشبه كوخا ضخما من الجليد، لكن أمنية العودة كانت جافة متيبسة كحبة قمح لفحتها النار، هناك بيته الدافئ، أشجاره المحببة التي زرعها بيده، مجسم السفينة البيضاء الشراعية الصغيرة فوق الدولاب الصغير، صورة أستاذه العظيم ليف تولستوي على الحائط هناك فوق الجميع، حضن أمه الحبيبة وأخته ماريا. حدث نفسه: يا الله كيف يمكن ترك كل هذا الجمال مبكرا؟

أحس أن قدميه تعبتا من الوقوف في الشرفة، شعر كأنه في الثامنة والثمانين وليس فقط في الرابعة والأربعين، تذكر محل البقالة الذي كان يملكه أبوه، والساعات الطويلة التي وقفها على قدميه، وإذا تعب وجلس وأغمض عينيه قليلا رغما عنه، أيقظته لكمة قوية من الأب الصارم، ويتطاير الرذاذ مختلطا بالدم من فمه وأنفه قبل أن يتلقى السباب والشتائم .

زفر بحزن وتنهد، وتجسد أمام عينيه صبي صغير معذب، فكر أن يهرب ذات يوم من دكان الإسكافي الذي يعمل لديه، لكنه خاف من البرد والجليد لأنه لا يملك حذاء، وضحك تريجورين في قلب دوامة الأسى والأحزان، وابتسمت أولجا وضمته أكثر وسألته ما الذي يضحكك؟

قال: تذكرت عبارة صبي صغير معذب، دعكت زوجة معلمه، فسيخة في وجهه لأنه شرع في تقشيرها من الذيل، فأرسل لجده رسالة استغاثة وأوصاه ألا يعطي الهارمونيكا لأحد وأن يخبئ له جوزة مذهبة.

قالت أولجا: أوه يا عزيزي، إنه فانكا بطلك الصغير.

قال: ما أشبهه بي وما أشبهني به!

قالت: يا حبيبي أنت كاتب عظيم مشهور ونجم باسق وعلاوة على ذلك فأنت طبيب ممتاز، وكاتبي المسرحي المفضل، انظر لي، لقد أغويتني وسحرتني وها أنا الآن زوجتك.

استدار تريجورين ونظر لزوجته الممثلة المسرحية المشهورة، نظر في عينيها تماما، وصمت قليلا، كان يحدث نفسه: من أغوى من؟ من الذي يصدق أنني استسلمت بعد كل هذه السنوات من العزوبية والوحدة واتخذت قراري الأحمق وتزوجت، ما الذي كان

سيحدث لو ظللت أعزبا، هل سيتوقف العالم عن الحياة؟ كم أنا وحيد حتى وأنت على بعد قبضة يد مني.

- إلى أين ذهبت يا حبيبي؟ ما كل هذا الشرود؟ فيما تفكر؟

- تذكرت طفولتي القاسية يا أولجا، لم يكن هناك شيء يفرحني، سوى الهروب من المدرسة لحضور مسرحية، كنت أدخر كل قرش يقع في يدي وأنفقه هناك، سحرني المسرح مبكرا، وأنا في الثالثة عشرة، كنت أجلس في الصفوف الخلفية، التذاكر في الخلف أرخص، أشاهد وأسمع وأنفعل وأتعايش وأتقمص.

أفلس أبي وترك بلدتنا الصغيرة هربا من الدائنين، وأخذ أمي وإخوتي وفر إلى مدينة القباب الذهبية، وبقيت وحيدا، أعطي الدروس الخصوصية لأوفر طعامي ومصروفاتي، اصطدت طيور الحسون والديوك البرية الرومية وبعتها كي أرسل القليل من المال لإخوتي وأمي، كانت أياما صعبة، وبعد نجاحي في الثانوية ذهبت إليهم و التحقت بكلية الطب وعدت لدفء العائلة.

- لماذا أنت حزين يا حبيبي؟ أنت لم تتوقف لحظة واحدة عن دعم إخوتك ومساندتهم طوال عمرك، حتى المرضى الفقراء عالجتهم مجانا، ساهمت في بناء المدارس والمستشفيات وجعلت الخراب جمالا وجنة، أنت عظيم ورائع يا حبيب قلب أولجا.

أحس أن صدره يضيق ويضيق، ازداد الألم في رئتيه، سعل بقوة وتلطخ المنديل في يده باللون الذي كرهه و أحبه، شعر بدوار طفيف، واختل توازنه للحظات، بدت له جدران الغرفة كمرايا نقية شفافة تفضي إلى مجرة واسعة مليئة بالشموس والدفء ونجوم شابة تومض في ظلام بعيد جدا، تخيل أنه يرى بوضوح وبقدرة لم يعشها قبلا، بدأت نظرته تنفذ في الأشياء، تأمل شجرة الصفصاف في حديقة المستشفى، تخيل أنه يرى طفلة جميلة صغيرة بشعر أحمر تلهو بالأوراق المتساقطة، هبط عقاب أسود وحملها بمخالبه القاسية، سقطت دمعة من عين امرأة حزينة، ظلت تكبر وتكبر حتى صارت بالونا أحمر أخذ يتصاعد للشمس، جلست في ظل الصفصافة تنتظر الموت، يبدو وجهها من الجانب كطائر يهم بشرب الماء، فجأة يظهر زوجها الحجري نجار التوابيت وأخذ يهددها بقبضتيه وهي تنكمش وترتجف رعبا من قسوته الدائمة، تنهد تريجورين وتأوه، تذكر حبه للحكايات والقصص البارعة التي كانت ترويها له أمه وهو صغير، أحس بشوق كبير لها وأضاءت الوحشة قلبه كانفجار قنبلة هيدروجينية في صدر حوذي مسكين لم يجد في المدينة الميتة أحدا يحكي له كيف مات ابنه.

مست أولجا كتفه برفق وقالت: حبيبي أين ذهبت؟

تنفس بصعوبة، لمع حزن هائل في عينيه، قال: أنا على شرفة الموت.

شهقت، مدت يدها ولمست شفتيه برفق، قالت: لا تقل هذا الكلام. أنت بخير، أنت تتعافى، سنغادر هذه الغرفة ونرجع إلى بيتنا قريبا، أرجوك لا تمزق قلبي بكلماتك المرعبة، جذبته برفق إلى السرير، طلبت منه أن يستريح، قالت: سأعود حالا.

جاء الطبيب بعد دقائق بصحبة أولجا، ابتسم في وجه زميله الطبيب، طمأنه ورجاه برفق ألا يفكر في الموت، وليبق مرحا وسعيدا فهذا أمر ضروري لهزيمة المرض، ثم حقنه بمادة الكافور، وأمر له بكأس كبير من الشمبانيا.

أمسك تريجورين الكأس وابتسم ابتسامة ناصعة وشربه، ضحك برقة ولباقة كعادته وقال: الشمبانيا! لقد افترقنا منذ زمن بعيد، واسترخى في فراشه، وأغمض عينيه.

أمام المرايا الشفافة التي قامت كالأشجار من الأرض، تشكلت وجوه حية أحبها، وجه أمه، أخته ماريا، ابتسامة أخيه، أستاذه تولستوي، صديقه مكسيم، ووجوه صنعتها مخيلته الحاشدة بالأحلام الحلوة والمآسي، قال لنفسه: آه أيها النورس المقاتل تريجورين، يا أمل روسيا الأوحد، يا عبقري زمانك المتفرد، أيها السر الخالد إلى الأبد، تُرى هل سيتذكرك أحد بعد مائة أو مائتي سنة من الآن؟ خصوصا هؤلاء الذين مهدت لهم الطريق؟ عشت طوال عمرك تراهن على شيء واحد، واحد فقط، دائم وأبدي وحي، مثل نور الشمس يا تريجورين الخالد.

هدأ وأخذ يريح عقله من الأسئلة والآمال التي تتعلق بعود قش قبل أن تحمله معها إلى القاع، رأى جسرا من الجليد يمتد حتى قدميه، وهناك في نهاية الجسر، شرفة زرقاء في بيت أبيض كبير، مزينة بأوراق التوت، وحمامة بيضاء تقف على السياج ، وباب صغير يفتح ببطء، وتظهر من خلاله فلاحة شابة، بدت حسناء جدا ويائسة، تبسط يديها وتناديه للدخول باسم غريب: يا يجور سلافيتش، أيها الصياد البارع، كَلَّ بصري من النظر وأنا أنتظركُ.

سقطت نظارته الطبية، وأفلتت يداه لجام الحياة، استسلم للنوم الطويل، كطفل بريء مطمئن، سمع صفير الرياح، أصغى السمع والتقطت أذناه عبارة قديمة من الماضي تترنح كفراشة ثم تبهت ألوانها في عينيه ، أحبك يا ناديا، أحبك أيتها الحياة.

أولجا. اسم زوجة تشيخوف

بوريس تريجورين. اسم بطل مسرحية النورس لتشيخوف.

دموع لا يراها العالم. عنوان قصة قصيرة لتشيخوف.

الفقرات باللون الأزرق، مقتطفات من قصة كمان روتشيلد ومسرحية النورس وقصة الصياد وقصة مزحة لتشيخوف.

القَنَّاص

صَعِد ضَابِطُ القُوَّات الْخَاصَّة المتقاعد سَلَّم الْبِنَايَة ذَات الطَّابَق الْوَاحِد ، وَضَعَ عَلَى السَّقْفِ الإسمنتي، حَقِيبَة البُنْدُقِيَّة الحَدِيثَة ذَات الْمَدَى الْقَاتِل الْمُمْتَدّ لِأَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ كِيلو مِتْراتٍ ، أَعَدّ البُنْدُقِيَّة بِدِقَّة ، رَكِب مِنْظار الرُّؤْيَة اللَّيْلِيَّة ، تَأَكَّدَ مِنَ بِطاقَةِ الميموري الصَّغِيرَةِ فِي مَكَانِهَا دَاخِلَ كاميرا الفيديو الْمُلْحَقَة بالمنظار المتطور، نَظَرَ إِلَى التَّلال والكثبان الرَّمْلِيَّة الْعَالِيَة، الْتَفَتَ إِلَى الْجَبَلِ الّذِي يَقَعُ وَرَاءَه مُبَاشَرَةً عَلَى مَسَافَةِ مئتي مِتْر تَقْرِيبًا، وَمَسَحَه بِعَيْنَيْه .

لَمْ تَغْرُبْ الشَّمْسُ بَعْدَ، بَقِيَت دَقَائِق قليلة، نَظَرَ إِلَى الْمَرْعَى الْأَخْضَر الْوَاسِع، والْأَبْقَار الَّتِي تَأْكُلُ فِي اطْمِئْنان، تَأَمَّل السِّياج الْحَدِيدِيّ الَّذِي لَا يَزِيدُ ارْتِفَاعُهُ عَنْ مِتْر وَيُحِيط بِمَزْرَعَة الْأَبْقَار مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ ، وأشعل سِيجَارَتَه المارلبورو، وَهُوَ يَنْظُرُ لِلْأَسْفَل مِنْ سَطْحِ الْبِنَايَة ذَات الطَّابَق الْوَاحِد الواطئ، للرمل الَّذِي يحاصر الْمَبْنَى الصَّغِير ذِي الْغُرَف الثَّلَاث والِحَمَام الضِيق الذي دَخَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَصْعَدَ .

- تفضل الشاي يا سيف باشا، قدم مالك المزرعة كوب الشاي للقناص، ووضع أمامه طبقا به عنب و تفاح أحمر وأصفر، نزع سيف الخنجر الاستانلس ستيل من جرابه الجلدي المعلق في حزام بنطلونه، قطع تفاحة حمراء أربعة أجزاء، والتهمها وكرر الأمر مع تفاحة صفراء، وفرط حبات عنب في قبضة يده وقذفها في فمه، ومالك المزرعة ينظر إلى طوله وقوة بنيانه الجسدي، وتفاءل كثيرا أن هذا الوحش الآدمي سيخلصه من مشكلته الكبرى.

منذ أيام اتفق معه على ضرورة القضاء على أكبر عدد من القتلة واللصوص الذين حولوا حياته إلى بكاء وحسرة، حيث كل ليلة يفقد غنمة أو اثنتين أو عجلا صغيرا، وأول أمس وجد عشرة خراف مبقورة البطن وبعضها مقطوع الحلق، لذلك قرر أن يستعين بهذا القناص الشهير لإراحته من العذاب، وإيقاف خسائره.

سيف عبد الكريم، تم فصله من الخدمة بعد استهدافه لعدة مواطنين وإسقاطهم برصاص بندقيته، كان موقعه الأفضل فوق العمارات الشاهقة، وبعد عدة تجارب في إسقاط المشاغبين والهمجيين الذين يسرقون البنوك والمحلات ويشعلون الحرائق ويغتصبون الفتيات، أثناء ثورة يناير في ميدان التحرير وسط القاهرة.

كانت التقارير تصل للإدارة بأسماء القتلى، تم وضع سيف تحت الملاحظة، بعد توجيه لفت نظر كبير له على ما وقع منه، وتحذيره أنه من الجائز توجيه تهمة القتل العمد له إذا تكررت هذا الحوادث.

لكن سيف كان قد أصبح مهووسا بمشهد انفجار رأس آدمي حين تخترقه رصاصته الغادرة، والتسامح الذي تعاملت به الإدارة كان سببه أنه أسقط مجرمين عتاة لهم ملفات عديدة في الإجرام ومساجين سابقين، اندسوا وسط الجموع الحاشدة للطلبة الثائرين والمواطنين الرافضين لسياسات الحكومة التي أرهقت الشعب لسنوات طويلة، وتم اعتبار الضحايا متآمرين وخونة ويستحقون الموت.

وذات ليلة من تلك الليالي، وجد سيف أمام عدسة البندقية رأس امرأة حسناء، عض على شفته بغيظ وارتبك وقال لنفسه: المجرمة.

كانت الصحفية سارة عدلي تهتف مع المتظاهرين، اعتبرها سيف امرأة مغرورة، رفضت حبه ورفضت طلب زواجه منها بصلف وكبرياء وحدة.

خففت السيجارة التي أشعلها توتره الشديد، وارتعشت يده لأول مرة، لم يكن يصله صوتها المرتفع وهي تهتف: الشعب يريد إسقاط النظام، تذكر رغبته المجنونة فيها وشغفه بها، وفشله الذريع في استمالة قلبها نحوه، صوب رصاصته بين عينيها، أغمض عينيه، ضغط الزناد، وسمع تك، وغادرت الرصاصة كاتم الصوت، فتح عينيه، وكانت سارة قد ذهبت إلى حيث لا يرجع الذاهبون.

حاول سيف أن يبرر أثناء محاكمته العسكرية ما جرى بأنه حادث، وأن القتيلة تحركت وأصبحت في مرمى الرصاصة بدلا من البلطجي الشهير الذي كان يقف بجوارها، لكن تمت إحالته إلى

التقاعد، فقد اشتعلت الصحف الورقية والالكترونية ومواقع التواصل غضبا للقتيلة المغدورة، وطالبوا الحكومة بالقصاص العاجل.

هو الآن في منطقة مزارع نائية خارج المدينة، حصل على خمسة آلاف جنيه لإنجاز مهمة داخل صميم تخصصه، رغم شرائه لشقة واسعة وجهزها لافتتاح مكتب محام، لم يمارس المهنة التي يكرهها حتى اللحظة.

نزل الليل، كان قد انتهى من تركيب المنظار وكاتم الصوت، وبدأ يمسح بمنظار الرؤية الليلية الجبل و المساحة الواسعة للمزرعة، ثم ظهر هدفه الأول.

من بطن الأرض خرج ذئب شاب، نظر يمينا ويسارا، ثم تحرك باتجاه السياج الحديدي، وقف الذئب للحظات كأنه يقرر هدفه التالي، أو ربما ينتظر إخوته، وما أن أنهى عواءه الذي يبدو كنداء عسكري مشفر، حتى ظهر ذئبان آخران، كتم سيف أنفاسه، صوب تجاه المنطقة التي فوق القائم الأمامي من جسد الذئب، على مسافة ربع متر من عنقه، ضغط الزناد وسمع تك، وسقط الذئب، ولم يتحرك.

صوب سيف على ذئب تلو الآخر، أفضلها حظا جرى لعشرين مترين بعد الإصابة ثم سقط.

صعد مالك المزرعة ليتفقد أحوال القناص، وقدم له شاي آخر، وسأله ما الأخبار؟

فأعطاه سيف فوارغ الطلقات، كانت سبعا وعشرين طلقة بعدد سنوات عمره، حدث نفسه " يا لها من مصادفة غريبة "

فرح مالك المزرعة بعد أن عد فوارغ الطلقات، وقال لسيف: سلمت يداك، هل ظهر الملك؟

قال سيف: لم يظهر بعد.

كانت كاميرات المراقبة قد رصدت ذئابا رمادية عديدة، شاركت في هجومات كثيرة على الأغنام و صغار العجول، وظهر بينها ذئب أسود كبير الحجم عن الجميع بشكل واضح، وكان يقودهم، وكان الاتفاق بين المالك وسيف أن يقنص هذا الوحش الشجاع.

بلغت الساعة العاشرة والنصف ولم يظهر له أثر. كان المالك فرحا وأحب أن يقدم واجب ضيافة مميزا للباشا، فأخبره أنه سيذهب بالسيارة إلى مول سنتر المدينة لشراء أطعمة وحلويات ومشروبات، وقال له: لن أتأخر عليك.

فأوصاه سيف أن يشتري له علبتي سجائر مارلبورو، وانطلق الرجل.

الذئب الأسود كان خلف سيف طوال الوقت، منذ أن رآه يصعد السطح قبيل الغروب، وَكَمِنَ له في كهف صغير في أعلى الجبل، ورغم أن سيف مسح بمنظاره المنطقة بشكل دائري، فقد ظن أن

ظهره آمن من جهة الجبل، حيث جاءت الذئاب كلها من جهة الوادي.

سمع الذئب صوت محرك السيارة، ورآها تبتعد، نظر إلى سطح البناية حيث ينام القناص على بطنه، كانت عينا سيف تراقبان من خلال المنظار الليلي ظهور أي ذئب وبضغطة أصبع يسقطه فورا، في نور الهلال الشحيح، لمعت عينا الذئب الذهبيتان، ثم صارتا جمرتين حمراوين كدرتين من الياقوت، كان الذئب يشعر بكل رصاصة تقتل أحد إخوته وكأنها مرت خلال قلبه أولا، فهبط سريعا من الجبل إلى هدفه الوحيد على الأرض.

طاف الذئب مرات ومرات حول البناية الصغيرة ، اطمئن أنه لا أحد هنا، كلاب المالك حبيسة هذه الليلة، كي لا يقتلها سيف بالخطأ.

ثلاث غرف وحمام، وسلم داخلي يفضي للسطح، دار الذئب حولها بخوف الحرص، تصل أنفه رائحة دماء إخوته المغدورين، تفقد الباب فوجده مغلقا، استدار تجاه النافذة، كانت الأولى محكمة الإغلاق، أما الثانية فكانت مواربة، وقف على قائمتيه الخلفيتين ودفع الدرفتين الخشبيتين بفمه ففتحهما بهدوء، تشبث وقفز إلى الداخل، نبحت الكلاب الحبيسة في الغرفة الصغيرة.

صعد الذئب بسرعة دون إبطاء ولا تردد، لقد أربكه نباح الكلاب المستمر، لابد أنها تشممت رائحته، إنه يعرف جيدا أنه سيخسر أي

معركة ضد مجموعة كلاب، لكنه اطمئن أنها حبيسة ومقيدة فأكمل الصعود بعزم تجاه هدفه.

سمع سيف نباح الكلاب المتوتر المحذر، واقتحمت أنفه رائحة حيوان قريبة من رائحة الكلاب الألمانية التي كان يستخدمها في عمله، وفي سرعة خاطفة سحب الخنجر من الجراب المعلق في حزامه، لمع السلاح الفضي في عيني الذئب الغاضب، سيف يحاول تبديل وضعية جسده ، قفز الذئب بسرعة وامتطى ظهر سيف، وغرس أنيابه في رقبته قابضا على قفاه، صرخ سيف صرخة قوية بصوته الغليظ الجهوري وزأر كدب جريح : عاا . . عاااا.

ضم قبضتيه وثبتهما على أرضية السطح الإسمنتي، انتصب واقفا، دون إضاعة ثانية واحدة في التفكير، دار على كعبيه، صار ظهره للفراغ، أحس الذئب بالخطر الداهم، أفلت رقبة سيف من بين أنيابه، حاول أن ينقذ نفسه، لكن لسوء حظه نشبت مخالبه في النسيج القطني السميك للتي شيرت الذي يرتديه سيف، ألقى الضابط نفسه من البناية إلى الرمل، سقط على ظهره بجسده الطويل الضخم ، والذئب تحته تماما.

كان الظلام واهنا، هلال ناشئ و لمبة واحدة تضيء المدخل ومطلع السلم، في الضوء الشحيح سدد سيف الطعنة الأولى لرقبة الذئب التي كسرها السقوط، والثانية في البطن أما الثالثة فقد غرس الخنجر في منتصف الأذن.

أراد الوقوف، لكن عجز عن ذلك، أحس حرارة دمه تسيل على صدره وظهره، حاول نزع التي شيرت ليلفه حول جروح عنقه العميقة، شعر بدوار قوي وعجز عن تحريك ظهره، بدأ ضغط دمه ينخفض بسرعة، تشوشت عيناه، طافت صور القتلى أمام عينيه، رأى وجه سارة تبتسم في شماتة وفرحة، كانت تقف على شاطئ بحر وخلفها بركان يثور وتتدفق حممه إلى الماء، أحس أنه يسقط من جبل مرتفع إلى هوة سحيقة مظلمة، حاول أن ينطق، قال: أشهد. . لكن حلقه جف كالحجر، أغلق عينيه، تذكر مكتب المحاماة الجديد الذي جهزه ولم يباشر عمله فيه بعد، أحس بسخرية القدر تخرج لسانها له، ترك رأسه تنزلق على بطن الذئب القتيل، فتح عينيه للمرة الأخيرة وعندها رأى ما تعجز أن تراه عدسة الرؤية الليلة.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَحْضَر عِيدٌ السَّاحِر، الرَّجُل الْقَصِير الْقَبِيح ، ابْنُ الْخَمْسِين، دَجَاجَةً توشك أن تبيض، طَلَبَ مِنْ مساعده خَيْطًا أَسْوَد وإبرة حِيَاكَة، وَضَع وَرَقَة بَيْضاء أمَامه، رَسْم طلسما، كَتَب حُرُوفًا مُفَرَّقَة بِحِبْر من الزَّعْفَرَان وَالْمَاء وَالْمِسْك، قَرَأ تَعْوِيذَة، أنْهَى عَمَلَهُ، وَذَهَب الرَّجُلَان لِلْمَقَابِر، فَتَحَا قَبْرًا وَتَرْكًا الدَّجَاجَة الْمَخِيطَة دَاخله وأغلقاه .

كَانَ الْعَمَلُ السَّحَرِيّ يَرْصُد فَتَاة صَغِيرَة حُبْلَى، طَلَّق الْمِيلَاد طَرَق رَحِمِهَا اللَّيْلَة، تُحَاوِل الدَّجَاجَة أَنْ تَبْيَضّ لَكِنَّهَا مَخِيطَة، فتدور وتدور وتصرخ دَاخِلَ الْقَبْرِ الْمُظْلِم بِصَوْت مُعَذَّبٍ ومستجير، وَكُلَّمَا تَعَسَّر مِيلاد الدَّجَاجَة وتألمت تَعَسَّرَت الفَتَاة وتألمت .

قَرْيَة الفَتَاة نَائِيَة جِدًّا، قَرْيَة شَاسِعَة مِن صَحارِي زِرَاعَة الْبِطِّيخ، لَا يُرَى بَيْتً وَاحِد خِلَال أفدنة كَثِيرَةٍ عَلَى مَرْمَى الْبَصَر .

الدَّجَاجَة حَبِيسَة قَبْرٍ فِي عِزْبَة كَبِيرَة تَعِيشُ عَلَى صَيْد الأسْمَاك وَبِهَا عمْرَانٌ كَثِيف .

الْمَرْأَةُ الْعَاقِرُ سَمَاهِرُ زوجة أمجد السائق، دَفَعْت مَبْلَغًا كَبِيراً لِعِيد السَّاحِر وَمُساعِدِه صَاصَا .

كَيْ لَا تُنْجِب عَبِير الشَّابَّة - عَرُوسُ زَوْجِهَا الْجَدِيدَة - طِفْلًا يُفْرِحُ قَلْب النذل الَّذِي تَزَوَّجَ عَلَى -عشْرَة الْعُمْر- الَّتِي انتشلته مِنْ الْفَقْرِ وَالْجُوع وَأَصْبَح بدعمها وَمَالِهَا مَالِكًا لسيارة نَقَل مَرْسِيدِس بقاطرة، لِأَنَّهَا لَا تُنْجِب.

عبير تصرخ والداية المُولِّدةُ تلطمُ خديها يأساً وفزعاً، والدجاجة في القبر تصرخ، وأبوها وأمها وأختها في حالة عجز.

كادت عبير أن تموت، لا هواتف هنا، لا مستشفيات، لا سيارات، زوجها يقود شاحنة تنقل الدقيق بين المدن، لن يرجع إلا قرب الظهر.

خلال المقابر كان سرحان البلطجي يتسلل للمبيت كعادته في مقبرة.

سمع صياح دجاجة، فتش في كل مكان، أنار مصباح الهاتف الصيني، تحسس باب القبر، لاحظ أن الإسمنت لم يجف بعد، ألصق أذنه، قال لنفسه: ربما تلاعبني عفريتة شقية، صاحت الدجاجة، فتح القبر بعنف وغضب، أنار الظلمة، رآها، استعاذ وسمى الله، رغم جسارة قلبه اهتز للحظات وخاف، استخرجها، تفحصها ورأى الخياطة فتحيَّر وأكلهُ الفضولُ.

ذهب بها للشيخ خالد، فزع الرجل منه وظن أن هناك مصيبة ستقع له فسرحان قتَّالُ قَتْلَى كما يقول المثل.

طمأن الشيخ فهدأ، وحكى له وأراه الخياطة.

قرأ الشيخ على الدجاجة آيات من سورة البقرة، وفك الخياطة، وباضت الدجاجة، وفي بيت ناء في قرية بطيخ بعيدة ولدت عبير طفلها.

سرحان لم ينته الأمر بالنسبة إليه، لقد اقتحم أحدهم منطقته وبيته، ورغم أنه شرير أحس بغضب ورغبة في الانتقام.

طاف بمقاهي عزبة الصيادين، ظل يسأل ويسأل حتى توصل لمعلومة.

عرف أن رجلا طويلا جدا جاء بصحبة رجل قصير في سيارة فيات زرقاء رقمها ألف وسبعة، ودخلا المقابر وغابا قليلا وخرجا.

عند الفجر كان سرحان قد جمع تسعة من أصدقائه المجرمين، وتوجهوا للمدينة المجاورة بالدراجات النارية، بعد أن عرفوا صاحب السيارة المميزة الأرقام، عن طريق عرضحالجي يملأ استمارات المتقدمين لهيئة المرور.

سرحان وأصحابه وجدوا عيدا وصاصا يقظين في شقة الساحر في الطابق الأرضي.

خدعوا الساحر ومساعده، وأوهموهما أن هناك حالة طارئة تستدعي تدخله حالا، وأنه سيحصل على ألفي جنيه مقابل خدمة صغيرة، لفك شاب مربوط تزوج أجمل امرأة في العزبة.

سَمِع عِيدٌ وَصْفَ الْعَرُوس فَأَصَابَه نَشَاط مُفَاجِئ واستعر جَسَده .

أمَام الْقَبْرِ نَفْسِهِ، قَيَّد البلطجيةُ عِيداً وَمُساعَدَه وَاعْتَرَف الرَّجُلَان بمكيدة سماهر وَعَمِل سِحْرٍ يَمْنَعُ عَبِير أَنْ تَلِدَ .

كممهما الشُّبَّان بمنديلين من القُمَاش، بعد ضربهما بقسوة وتعذيبهما، وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِمَا الْقَبْر وَمَعَهُمَا الْبَيْضَة .

آخَرُ صَوْتٍ سَمِعَه السَّاحِر وَرَفِيقُه كَانَ صَوْتَ الدَّجَاجَة الْمُعَذَّب الْمُسْتَجِير .

نَظَرَ سرْحان لِرِفَاقِه وللدجاجة وَقَال: نطبخها شوربة ؟

لَكِن سَمَيِر صَدِيقُه الْمُقَرِّب قَالَ لَهُ: دَعْهَا لَقَد تعفرتت فِي الْقَبْرِ فَتَرَكَهَا سِرْحان .

سَأَلَه سَمَيرٌ مَتَى سنخرج الرِّجْلَيْن ؟

وَقَف سِرْحان وَقَال : إنْ شَاءَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

اَلْرُوحَانِيُّ

رَغِم أَنَّهُ لَمْ يَتَجَاوَزْ الثَّامِنَةَ مِنْ عُمْرِهِ، فَقَدْ أَدْرَكَ مَحْمُودٌ مِثْلَ الْكِبَارِ تَمَامًا، أَنَّ أُمَّهُ مَاتَت.

مُنْذُ لَحْظَةِ سُقُوط عَيْن أَبِيه عَلَيْهِ بَعْدَ مَوْلِدِهِ بِدَقَائِق، بَدَا وَاضِحًا أَنَّ هَذَا الطِّفْلَ جَمِيلٌ جِدًّا، وَجْهَه مُسْتَدِير كالبدر، بَيَاضَه نُور وَنوره ضِيَاء، وَشَعْرُه الْأَسْوَد النَّاعِم كَان كَشَعْر رَضِيعٍ مَفْطُوم، وَكَانَ أَكْبَرَ حَجْماً وَوَزْنًا مِنْ إِخْوَتِهِ يَوْم وَلَدَتْهُم أُمِّه .

حِفْظ سُوَرًا كَثِيرَة مِنْ الْقُرْآنِ فِي الْمَعْهَدِ الْأَزْهَرِيّ، َصَوْتُه كَانَ كَمَا يُقَالُ: كتغريد الْبَلَابِل وغِناء الْعَصَافِير .

نَامَت أُمه بَعْدَ الْعَصْرِ وَلَمْ تَسْتَيْقِظ، فَحَصَها طَبِيبُ الْإِسْعَاف وَأكَد لِزَوْجِهَا وَأَوْلَادِهَا أَنَّهَا فَارَقَت الْحَيَاة، لَكِنَّ الزَّوْجَ كَانْ يَسْمَعُ قصصا كَثِيرَةً عَنْ الْأَشْخَاص الَّذِينَ يُدْفَنُون أحْيَاء بَعْد تَعَرُّضِهِم لغيبوبة كَبِد، فَأَصَرَّ عَلَى نَقْلِهَا للمستشفى، وَهُنَاك فَحْصها طاقَم أَطِبَّاء، وَأَكَّدُوا أَنَّهَا توفيت.

بَكَى مَحْمُودٌ كَمَا بَكَى إِخْوَته الْكِبَار، البِنْتَان والشابان، وَأَصَرّ أَنْ يَمْشِيَ وَرَاءَ الجَنَازَةِ.

صَلَّى النَّاسُ الْمَغْرِب، وَتَمَّتْ صَلَاةُ الْجِنَازَةِ، وَصَار الْمَشْهَد مُهَرْوِلَا وَكَانَ رَجُلٌ هُنَا يَقُولُ، وَرَجُلٌ هناك يُؤَكِّد: الجنازة طَائِرَة يَا سُبْحَانَ اللَّهِ، إِنَّهَا امْرَأَةٌ صَالِحَةٌ بِحَقّ .

فِي الْمَقَابِرِ تَزَاحَم الشَّبَاب لِحَمْل النَّعْش مِن سَيّارَة تَكْرِيمِ الْأَمْوَات إِلَى قَبْرِ العَائِلَة الْكَبِيرَة الثرية، وَحَمَل ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ كشافات النيون، أَمَّا عَائِلَة مَحْمُودٍ فَلَا تُمْلَكُ قَبْرًا هُنَا وَلَا فِي أَيِّ مَكَان .

تَدَافَعَ النَّاسُ خَلْف النَّعْش، وَكَاد مَحْمُودٌ أَنَّ يدهسه المتزاحمون، فَدَخَل حارة صغيرة بين قبرين، ونظر للطريق الضيق بين المقابر والأعداد الغفيرة وقال لنفسه: أستدير وراء هذه القبور وأقابلهم على رأس الطريق، وانعطف محمود الصغير، كان أقصر كثيرا من أي قبر يرتفع لمترين، القبور عالية كالبيوت المصغرة، والناس في مصر لا يدفنون موتاهم في التراب خوفا من الذئاب والكلاب و سماسرة العظام الذين يبيعون الميتين لطلبة الطب، ومن المجرمين المعاقين نفسيا الذين يفتحون مقابر الميتات الشابات المدفونات منذ ساعة، لمعانقة رعشة الحياة، تحت ظلال الموت!

تَاه مَحْمُودٌ بَيْنَ الْمَقَابِرِ، وَصَل لمنطقة مُظْلِمَة، الْمِصْبَاح عَلَى عامُود الْإِنَارَة فِي مَدْخَل الْمَقْبَرَة عَجَزَ عَنْ مَدِّ أَصَابِعِه الْمُضِيئَة لِمَحْمُود فِي الظَّلَامِ .

بَكَى وتوتر وَأَخَذ يَرْكُض بَيْنَ الْقُبُورِ، تعثرت قَدَمَاهُ فِي أَغْصَان خُوص النَّخِيل الْيَابِس المكوم عَلَى التُّرَابِ، سَقَطَ وَهُوَ يَبْكِي، أَحَسّ أَنَّه يَهْوِي فِي بِئْرٍ عَمِيق مُعْتَم، أسرجت عَيْنَاه نُورًا لِلَحْظِه كبرق خَاطِف، وَلَطْمَ بِفَمِه التُّرَاب الْأَسْوَدَ مِنْ أَثَرِ جَرِيدِ النَّخْلِ الْمُحْتَرِق .

نِصْفُ ساعَةٍ رُبَّمَا أَوْ أَقَلَّ، ظِلّ مَحْمُودٌ مَطْرُوحًا عَلَى وَجْهِهِ فِي الظَّلَامِ ، ظَهَرَت امْرَأَة جَمِيلَة سَاعَدَتْه عَلَى الْوُقُوفِ وَغَسَلَت لَهُ وَجْهَهُ وأوصلته لعائلته الَّتِي انْتَهَتْ مَنْ أَخَذِ الْعَزَاء، نَظَرَ الصَّبِيُّ فِي عَيْنَيْهَا الزرقاوين فَرَأَى الْبَحْر وسماء اللَّيْل الْمُقْمِرَة الحاشِدَة بِالنُّجُوم، نَقَل عَيْنَيْهِ مِنْ سحْرِ عَيْنَيْهَا لشفتيها ووجنتيها وَشَعْرِهَا الذَّهَبِيّ، وَأَحَسّ أَنَّهَا شَفَّافَةٌ كَمِرْآة، تَعْكِس عَالِمًا سحريا لَا يَنْتَمِي لِعَالِم الْبَشَر، تَأَمَّل مَحْمُودٌ أَصَابِعَ يَدِهَا الممسكة بِيَدِه الصَّغِيرَة، فخيل إِلَيْهِ أَنَّهَا نُور يَمُوج يَتَدَفَّق مِن ذِرَاعِهَا لأطراف أَظَافِرَها، شَكَرَهَا وَأَحَسّ بِرَغْبَة فِي مُعَانَقَتِهَا لَكِن خَجِلَ مِنْ نَفْسِهِ .

عاد محمود للجنازة واختفت الحسناء، جرت العادة أن يقف أهل الميت بجوار بعضهم ، ثم يمر المشيعون عليهم للمصافحة والتعزية كأنهم في طابور العيش.

- ما الذي حدث لك ؟ سأل الأب ولده.

- وقعت هناك.

بعد أربعين يوما ظهرت العلامة الغريبة الثانية على محمود، أما الأولى فقد امتنع عن تناول الطعام أربعين يوما إلا بعد آذان المغرب، وتحير أبوه وإخوته لهذا الصيام، الصبي الجميل لم يأكل لحما ولا دجاجا ولا لبنا ولا بيضا، أما الفاصوليا والبطاطس واللوبيا والبامية وكل الخضر فكانت طعام أيامه الأربعين الغامضة.

ظهرت العلامة الثانية عندما صدم موتوسيكل مندفع أباه بعد المغرب وأصيبت ركبته بكدمة قوية، وبعد أن صعد البيت بمعاونة اثنين من الجيران وهو يتألم، التف حوله أولاده الخمسة وهم في حزن ورعب.

دلكت الفتاة الكبرى ركبة أبيها ودهنتها بكريم مسكن للألم، جاءهم هدية من خالهم بعد عودته من الحج.

ظل الأب يتألم ويتأوه، وحاول ابناه اقناعه بالذهاب للمستشفى ربما لا قدر الله هناك كسر أو شرخ، لكن الأب رفض وقال: سأكون بخير.

وزع نظراته بأسى وقلق على أبنائه، حسب دخله الذي لا يكفيه من عمله في مصنع صغير للحلويات، كلم نفسه وتغشاه الغم " المستشفى ستفتح فمها وتأكل جنيهات كثيرة، أشعة وتحاليل وأدوية، أولادي يحتاجون كل قرش"

ابتسم ابتسامة تعسة وهز رأسه ونظر للأرض: " لو أنني ذهبت لزيارة طبيب خاص ستحل مصيبة أكبر من إصابتي فوق رأسي" تنهد وشبك أصابع اليدين، ظل يفكر فيما جرى له وتدور بداخله حرب طاحنة لكنها لا تنقل ضجيجها إلى الأسماع.

بكى الأبناء لأجل أبيهم ثم تركوه لينام، محمود سمع صوتا في رأسه يقول: طبب ركبة أبيك بيدك. لكن الصبي لم يهتم لذلك، وتكرر الصوت، فقام وذهب إلى غرفة أبيه، فنادته أخته بحزم، لا تزعج أباك دعه يستريح.

فابتسم لها برقة ووضع أصبعه طوليا أمام فمه علامة السكوت، وفتح الباب برفق وتسلل وجلس على الأرض، كان أبوه نائما على جانبه الأيمن، انتظر محمود أن ينقلب على ظهره ليتمكن من تدليك الركبة، الباب موارب وسمية أخته الكبرى تشاهد في صمت.

انقلب الأب، مد محمود يديه واحتضن ركبة أبيه، قال: بسم الله.

دلكها من الأسفل للأعلى ومن الأعلى للأسفل، وعندما نظر في راحتيه وجد سوادا كهباب الفرن، ففزع وقام إلى الحمام وغسل يديه بالماء والصابون، بينما أحكمت سمية إغلاق الباب.

سألت سمية الشابة العشرينية الحسناء أخاها: ماذا فعلت؟

قال: لا أعرف.

في العاشرة مساء قفز الجوع إلى سرير الأب وعضه في بطنه، فنهض وخرج إلى الصالة.

كان الأولاد عدا محمود مستغرقين في مشاهدة فيلم، فلم يسمح لهم بفتح التلفاز سوى اليوم، رأوا أباهم يتحرك تجاه الحمام بخفة ونشاط دون عرج أو ألم.

اندهش الأولاد وفرحوا، وتأملت سمية خطوات أبيها بتعجب وحيرة، فدخلت غرفة محمود فوجدته يقرأ في المصحف ويهتز بقوة:

ويل لكل همزة لمزة.

ويكرر السورة بشكل غريب، فقالت له: أبوك صاغ سليم يا بركة.

فرح محمود وفزع في الوقت نفسه، وتمت المحافظة على السر، لوقت قصير- محمود في يده بركة شفاء - والتصقت الصفة بالموصوف، محمود البركة.

فيما بعد، ظهرت كرامات عديدة على محمود، فكان يمكنه توقع حدوث شيء قبل وقوعه بدقائق، ثم بيوم، ثم بشهر وصدقت توقعاته مرة واثنتين ومائة، وظل يستغرق في اختراق المستقبل، فقط يترك له أي شخص كف يده، وسوف يخبره بأفعاله السرية، واسم حبيبته، والأشياء التي يخفيها الناس، وأحيانا النجاح والفشل ودرجات تلميذ في الثانوية العامة قبل أن تظهر النتيجة بفترة، وذاع صيته أكثر وأكثر.

كان محمود يذهب لزيارة قبر أمه كل يوم، فهو في طريقه، ويمر عامدا على المكان الذي سقط فيه، يتمنى أن يلتقى مرة أخرى بالفتاة الحسناء التي وقع في عشقها دون إدراك منه لما يجري بداخل قلبه وعقله، ولم ينتبه محمود في عامه التاسع، خصوصا بعد أن بلغ الحلم، أن الأحلام التي يراها كل ليلة، وتستوجب منه الاستحمام ليظل طاهرا، تقتحم عالمه الصغير بسلطة امرأة حسناء أصابعها تموج كالبحر بالنور والألوان، وأن زرقاء العينين التي تسكن نجمة هائلة في السماء، كما تصور، دق قلبها لصبي واحد من بني البشر، وأنها اتخذته معشوقا.

مضت سنوات كثيرة، تعلم مهنة نجارة غرف النوم، واكتفى بدبلوم تجارة، فهو ملول ويكره الضبط والربط والقيود، وأحب العمل مع خاله، أحب نوعا لطيفا من الحرية رغم التعب والإجهاد وغبار الخشب.

كان الزبون الرئيسي لورشة خاله أحمد، رجلا ثريا من صعيد مصر، وبينما يجلس معهم في الورشة وهم يشربون الشاي ويتفقون على طلبية كبيرة، ترك سيارته اللانسر تقف على الشارع الرئيسي، لأن شوارع الحارة ضيقة ولا يمكن عبور السيارة إلى مكان الورشة، وكان لصان شقيان، يراقبان التاجر منذ فترة، وهذا المساء تهيأت الفرصة، فسخا باب السيارة وسرقا ستمائة ألف جنيه، كانت موضوعة في شنطة بلاستيكية سوداء في الدواسة اليمنى أسفل

المقعد، ورغم أن فوق الكيس، طماطم وخيار وبقدونس، لم تفلح الخدعة، وفتش اللصان الكيس وسرقا النقود.

وعندما قام محمود وخاله بالسير مع الزبون حتى السيارة، صرخ الرجل ولطم كالنساء وسقط على الأرض وفقد وعيه.

وتجمع الناس وتم الاتصال بالشرطة، وكانت المواساة التي حصل عليها الزبون من الناس الطيبين: الله يعوض عليك.

عض محمود على شفته وامتلأ غيظا، وكاد يتكلم، لكن رن الصوت في ذهنه، لا تتدخل.

حاول النوم طيلة الليل ولم يستطع، واتخذ قراره باستعادة المال مهما كان الثمن، لكن الصوت هذه المرة زاد قوة وحدة، ولم يعد يسمعه من الداخل، بل جاءه من بلاط الغرفة، من بين قدميه، لا تتدخل.

في الصباح اصطحب خاله وذهبا مع الزبون لفتح المندل، وقال لهم الدجال : أريد طفلة صغيرة طاهرة عذراء لم تحض بعد.

تفرس فيه محمود وتيقن أنه دجال كاذب، ولأن العثور على فتاة بهذه المواصفات وإحضارها إلى بيت الساحر أو بيت التاجر أمر صعب جدا، فقد اتفقوا على ترتيب الأمر، وخرج الخال والتاجر لكن محمود تلكأ وقال لخاله: سألحق بكما، انتظراني أسفل البيت.

نظر محمود في عين الدجال وقال له: أنت مغشوش أنت كذاب، وأنا أعرف.

فتح الدجال فمه وأراد الكلام لكن محمود قال له: هس اسمعني جيدا، أنا يمكنني استعادة المال وأعرف اللصين، لكني في عهد عظيم ولا يمكنني فتح فمي وممنوع أن أتدخل.

قال الدجال: إن كنتُ دجالا وأنت روحاني حقيقي فيجب أن أنصحك، لا أحد يستطيع أن يجلب حبة قمح من مكان لمكان، عفريت الملك سليمان استعرض قدراته لكنه لم يجلب عرش ملكة سبأ، وإذا كانت لديك خدمة روحانية خارقة ويمكنك بالفعل جلب النقود، فهذا أمر عظيم ولن يمر بدون عقاب وسوف تدفع ثمنا باهظا.

قال محمود: تتحدث كالمؤمنين وضحك.

قال الدجال: هي نصيحة لله إن شئت أخذت بها وإن شئت فتجاهلها.

الشرطة ألقت القبض على العديد من اللصوص، واعترف لصان بالسرقة!

لكن أين المسروقات؟! كان التاجر والخال يسخران من الأمر، وكان محمود يعرف أين أخفى اللصان المال، بعد أن أنفقا عشرة آلاف جنيه على الكباب والمخدرات والملابس.

محمود لم يكن يجهد نفسه، فقط يركز تفكيره بقوة في أمر ما، ويغمض عينيه، فيرفرف صوت رنان في ذهنه كهديل حمامة، وتتدفق المعلومات إلى رأسه، ولأنه اختبر تلك المعلومات المجانية مئات المرات أخذ يتعامل معها كيقين.

في لحظة يأس وغضب حلف التاجر أنه من يجلب له الستمائة ألف جنيه سيعطيه نصفهما!

وقف محمود مذهولا: وأمسك الرجل من كتفيه ونظر في عينيه وقال: هل أنت على قدر هذا الكلام؟ هل ستفي بهذا الوعد؟

قال التاجر: نعم وأشهد الخال.

لكن محمود قال: اكتب لي إيصال أمانة بالمبلغ واتركه مع خالي.

اندهش الخال وسأله: هل يمكنك إيجاد المال يا محمود؟

قال : بإذن الله يا خالي.

كتب التاجر إيصال الأمانة وليس بداخله ذرة أمل أن يرى نصف ماله المسروق ولا ربعه.

قال محمود: تصبحون على خير، موعدنا غدا إن شاء الله بعد صلاة العشاء.

هذه المرة لم يصعد الصوت لمحمود من بلاط الغرفة، بل رأى ظلا يطوف في الغرفة ويتشكل على الحائط جهة مشرق الشمس كهيئة حمامة، ثم تكلم الظل.

- قلت لك ألا تتدخل، لا أحد يسمح له بجلب حبة قمح، من يرتكب هذه الحماقة يهلك، تراجع عما في رأسك يا محمود.

لاحظ محمود أن الصوت هذه المرة لم يعد رنانا ضخما كأصوات تتردد في كهف جبل، بل بدا واضحا نقيا كصوت فتاة حسناء ، سأل محمود من أنت؟

قال الظل: يوم وقعت في المقبرة، سقطت في حجري ويومها رق قلبي لك وأنت من يومها حبيبي أنا، لي وحدي إلى أن تموت.

قال محمود: فهمت الآن كل شيء، وعرفت سر الأحلام الصاخبة، لكن لماذا تحضرين في صور الممثلات الجميلات؟

- أنت تحبهن دون أن تشعر.

- لماذا لا تحضرين كما رأيتك في المقبرة؟

- لن تحتمل ذلك، ستصير مجنونا.

- متى أراك بتلك الصورة مرة ثانية، وهل يمكننا أن . . ؟

- لا تفكر في ذلك لن تمسني في اليقظة أبدا.

- طيب لو أنني طلبت منك، لو نفترض أنني رجوتك أن تذهبي الآن لبيت فاطمة بائعة الجاز وتجلبين لي النقود المخبأة في المنور هل ستأتيني بها؟

- سأجلبها لك وأنت ستتحمل عاقبة فعلتك.

- أحضريها لأجلي.

- إن أحضرتها لك نفترق للأبد، لن أظل معك، ستفقد كل المواهب التي اكتسبتها في السنين الماضية، ستصبح إنسانا عاديا.

فكر محمود طويلا، وتحير وتعكر مزاجه، وقال في نفسه: ثلاثمائة ألف جنيه، لن أحتاج لأحد، لن أحتاج شيئا، لن أفتقر، سأتاجر وأربح وأستثمر، ليس مهما أن أقرأ الكف أو أعالج المرضى، سأتزوج وأغير حياتي. ثم قال بحزم: أحضري الحقيبة لأجلي يا . . ما اسمك؟ تخيلي لم أعرف اسمك حتى الآن!

قال الظل : رحمائيل

فشلت كل محاولاتها في إقناع محمود بالرجوع عما في رأسه، غابت دقيقة، مرت على محمود تماما كشهر، ونظر في ساعته الرقمية عدة مرات، قبل أن تعود، أعطته كيس النقود، ثم بدا صوتها باكيا جريحا ينزف قطرات من نار، ثم تلاشى الظل، وأحس محمود أن رأسه أصبح فضاء من الصمت.

وضع محمود النقود في الفراش وقبلها وعانقها ونام فوقها، وبعد العشاء في اليوم التالي، أعطى الرجل ثلاثمائة ألف جنيه، واحتفظ بالباقي، ورغم فرحة الرجل في البداية، أمرته نفسه الدنيئة أن يستفسر ويسأل كيف وأين ومتى؟ حتى أنه ألمح بالكلام أن محمود من دبر السرقة، لكن الخال نهر التاجر وأسمعه كلاما قاسيا.

وانصرف الرجل في خزيه وفرحته ودهشته.

حاول محمود إقناع خاله أن يأخذ مبلغا من المال لكنه رفض الفكرة رفضا قاطعا.

محمود اشترى قطعة أرض ستين مترا، رفع الجدار، وصب السقف، وفتح ورشة نجارة لغرف النوم، واتسعت حياته، واشترى سيارة.

لم يُدخلْ المالُ الفرحةَ لقلب محمود سوى لفترة قصيرة، وغمرته تعاسة قاسية، وكلما لجأ إليه مريض أو يائس، وجد البركة العظيمة اختفت، واليد الشافية جف الترياق منها.

ظل محمود يستدعي رحمائيل طوال الليالي ويتوسل لها، لكنها لم تجبه أبدا.

صار يزعجه كلام الناس أنه قد فقد الكرامات والقدرات الخارقة، وأوحى إليه شيطانه أن يقتني كتب السحر.

بدأ بكتاب صغير محدود القدرة، وتعرف على سحرة ودجالين في مدن عديدة، وعرف أن الكثير من الكتب مزيفة، حيث الأسرار العظمى غير موجودة، فالصفحات مقتطعة من الكتب ولم تطبع أصلا، كانت صدمته كبيرة بعد أن دفع ألف جنيه، عندما لاحظ أن رقم الصفحة انتقل من ثلاثمائة إلى ثلاثمائة وستين، عبر ورقة واحدة، وأن التعاليم المشروحة والتفاصيل الهامة الفاعلة ليست موجودة.

وبعد إضاعة المال والوقت في قراءة الكتب المزيفة، تعرف على ساحر عريق في الشيطنة، ولأنه تعلق بمحمود وأحبه بسبب كرمه وهداياه للعجوز، علم محمود بدون كتب العديد من العزائم والأسرار وتحول محمود الروحاني إلى ساحر شيطاني.

دخل السحر بيت محمود الجديد، وحمل الخراب معه، ولد ابنه الأول معاقا إعاقات عجيبة، يداه وقدماه كأغصان شجر الجوافة معوجة ورفيعة، عين ترتفع قرب الجبين والأخرى للأسفل، وفمه يميل للجهة اليسرى، لقد أنجب الوسيم مسخا.

كان يترك سيارته الجديدة جوار قسم الشرطة، في شارع جانبي ملاصق للقسم، وعقب أحداث الانفلات الأمني بعد ثورة يناير، أحرق ملثمون غاضبون أقسام الشرطة الثلاثة في المدينة، وظنوا أن سيارة محمود تخص أحد الضباط فأحرقوها وتفحمت.

الضربة الثالثة كانت عملية نصب كبيرة جدا، فالتاجر الثري الذي أخذ منه محمود نصف المال، ظل يمكر لمحمود عدة سنوات، يشتري كل منتجات ورشته، ويغدق عليه بالعرابين والإكراميات ولا يناقشه في الأسعار.

التاجر السوهاجي أنشأ مصنعا متطورا في مدينته بلصفورة، ورتب أوراقه للضربة الأخيرة قبل الاختفاء، أعطى محمود مائة ألف جنيه عربونا، وطلب طلبية ضخمة تتجاوز أربعمائة ألف جنيه من غرف النوم للكبار والأطفال، وقبل العيد بأسبوع تم شحن آخر حمولة، وانتظر محمود أن يحصل على المبلغ الضخم، رغم أنه يشعر بداخله أنه سيتعرض للنصب، وأنه لن يسترد ثمن الموبيليات، وصدق حدسه.

وفي اليوم الرابع من حادثة النصب، اتصل التاجر بمحمود من هاتف عمومي وقال له: احنا كده حبايب.

الْحُزْنُ كَانَ أَكْبَرَ مِنْ قَدْرِة مَحْمُودٍ وَسَرَح وَهُوَ يَقْطَعُ قطعَة أَخْشَاب بِالْمِنْشَار الأسطواني الَّذِي يَعْمَلُ بِالْيَدِ بِجَذْب مِقْبَضِه لِأَسْفَل فَيَهْوِي كالمقصلة ، وَفَصَل يَدَهُ عَنْ ذِرَاعَهِ إلا مِنْ جُزْءٍ ضَئِيلٍ، فِي غَمْضَةِ عَيْن .

تَجْمَّعَ النَّاسُ وَوَضَعُوه فِي سَيّارَةٍ وَانْطَلَقُوا بِهِ للمستشفى، وَمَن الْمُسْتَشْفَى الْعَامّ إلى مستشفى الْمَنْصُورَة، وَظِلّ يَخْرُجُ مِنْ غَرْفَةِ عَمَلِيَّات لِيَدْخُل غَرْفَةً أُخْرَى.

اِحْتَفَظ مَحْمُودٌ بِيَدِه لَكِنَّهَا صارت شبه عاجزة بالكاد يلتقط بها شيئا أو يغتسل، ظِلّ يَبْكِي فِي غُرْفَتِه الْمُظْلِمَة وَيَتَوَسَّل رحمائيل أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ وتساعده فِي أزْمَتِه الْكُبْرَى، جَاءَه صَوْتٌ رَخِيم قَوِيٌّ نَبَعَ مِنْ الْقَلْبِ وَتَصَاعَد للمخ .

تَذَكَّر مَحْمُودٌ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ السَّنَوَات أنَّ اللَّهَ حَيّ وَرَحِيم ، دَخَلَ الْحَمَّامَ واستحم ثُمَّ تَوَضَّأَ وَأَغْلَق بَاب غُرْفَتِه، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ .

صَلَّى وَصَلَّى وَبَكَى، مَسَحَ وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ الورديتين، ثُمَّ نَظَرَ فِيهِمَا فَرَأَى سَوَادًا كهباب الفُرْن.

العفاريت الغرقى

وصل شريف عبد الحي الطالب بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة، المدينة الجامعية بمدينة نصر، في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وضع حقيبة السفر في غرفته، وجلس ليلتقط أنفاسه المرهقة من صعود السلم للطابق الثالث، ومن عناء السفر من مدينته بلطيم حتى مدينة نصر.

فكر في الحصول على دش بارد لينعش جسده المتعرق المتعب، لكن شعوره بالجوع كان أشد إلحاحا وقوة من رغبته في الاستحمام.

أخرج ملابسه النظيفة المعطرة التي غسلتها له أمه وكوتها ورصصتها بعناية داخل الحقيبة. فتح دولابه ذي الدرفة الواحدة المصنوع من الصاج المطلي باللون الأزرق المقاوم للصدأ، ورص الثياب النظيفة بنظام، القمصان وحدها، وكذلك البنطولانات والسترات الشتوية والقمصان القطنية ذات الأكمام الطويلة والأطقم البيضاء الداخلية. ثم وضع الحقيبة بعد أن تأكد تماما من فراغها

فوق الدولاب، ثم رفع الحقيبة القماشية السميكة من بلاط الغرفة البارد ووضعها على المنضدة الصغيرة، سحب السوستة النحاسية ففاحت رائحة الطبيخ من داخل الورق الحراري الفضي داخل الحقيبة.

أخرج حلتين صغيرتين بحرص، ووضعهما على المنضدة، ثم أخرج الخبز المصنوع بمهارة من الدقيق واللبن والسمن البلدي، ثم تذكر الصراصير الصفراء الصغيرة التي تعيش معه داخل غرفته، فسحب ورق السلوفان الحراري من الحقيبة، فأصبح الخبز في يده اليمنى والورق الحراري في اليسرى، فتحير للحظات، ثم وضع الأرغفة فوق الحلتين المتلاصقتين، وأنزل الحقيبة عن المنضدة، ثم فرش السلوفان فوقها، ونقل الحلتين والخبز لمنتصفها، كشف الحلة الأولى فلم يجد بها ملعقة تحت غطائها الألومنيوم، جذب الحقيبة مرة أخرى واستخرج منها ملعقتين ملفوفتين في مناديل ورقية، ثم جذب أحد الكرسيين البلاستيكيين الموجودين في الغرفة وجلس ليأكل.

ذكر اسم الله، ودعا لأمه بصوت مسموع، ولم تكد الملعقة تمس الأرز، حتى تذكر أباه الفلاح الكريم وهو ينهاه عن الأكل بيده اليسرى، فابتسم وقال: الله يرحمك يا أبا، ثم نقل الملعقة ليده اليمنى وقال من جديد: بسم الله الرحمن الرحيم، حتى يفوت الفرصة على العفاريت التي أحاطت بمنضدته لتأكل معه، ورغم أنه لم يأكل أي

لقمة بعد قال: بسم الله أوله وآخره ليقطع الأمل تماما من قلوب العفاريت الجائعة، كعادة الأزهريين عندما يجلسون لتناول الطعام، خصوصا اللحوم والطيور والتي تحبها العفاريت أكثر من الأطعمة الأخرى، كالعدس والفاصوليا والبطاطس.

كان أستاذ مادة التفسير يخبرهم في المعهد أنه يمكن أن يتصدق الإنسان المؤمن على الجن المؤمن! وأن العفاريت تحب اللحوم والدجاج والبط.

يومها رفع شريف يده وسأل الأستاذ: كيف أتصدق على الجن يا أستاذ أحمد؟

فأخبره أنه بعد الانتهاء من التهام الدجاج أو البط أو اللحم، يمكنك أن تضع العظام الباقية في طبق، ثم تقرأ اسم الله عليها وتقول: اللهم إني أتصدق بهذا الطعام على الجن المسلم، ثم تضع الطبق تحت السرير!

عندها سأل تلميذ آخر: ومتى نأخذ الطبق يا أستاذ من تحت السرير؟ !

فرد الشيخ : في اليوم التالي حتى تتاح الفرصة للمسلمين من الجن لتناول الطعام!

ولأن شريف كان يحب التجريب والمغامرة، فقد أقنع أمه ذات يوم بالفكرة، ووضع عظام الدجاج أسفل سريره.

وفي اليوم التالي عندما قعد على ركبتيه لسحب الطبق من تحت سريره لم يجده في مكانه، فارتعدت فروة رأسه وانتصب شعره واقفا، وبحث بعينيه عن طبق العظام فوجده تزحزح إلى جانب الحائط، فنام على بطنه وتمدد تحت السرير ليستعيد الطبق وهو في حالة رعب وفرح، وبعد أن سحب الطبق وخرج به رأى غمامة سوداء صغيرة تكسو عظام الدجاج، وفي لحظات انتقل عدد كبير من النمل وترنح على بشرة ظهر يده، ففزع ثم صرخ وقذف الطبق من يده فسقط على ملاءة السرير البيضاء وتفرق النمل في اتجاهات عديدة، لكن أمه التي أفزعتها صرخته، جمعت الملاءة من أطرافها وجرت بها إلى الحمام وأغطستها في طبق الغسيل المملوء بالماء ومسحوق الرابسو، ومن يومها دخلت في ذهنه فكرة ظريفة، أن أمه أغرقت العفاريت، وأن كل مشكلة تحدث بينها وبين أبيه، وكل طبق فخار يسقط ويتهشم على الأرض، وكل لمبة صفراء أو نيون تحترق قبل أوانها ماهي إلا عمليات انتقام من عائلات العفاريت الغرقى!

نظر شريف عن شماله ويمينه واطمئن أن العفاريت انصرفت، فاستعد نفسيا لينفرد بوجبته الدسمة، التي سينام بسببها كالقتيل حتى صلاة العصر.

غرس الملعقة في الأرز المشبع باللبن والسمن البلدي، فأضاءت أمام عينيه عبارة يحفظها ويؤمن بها. وكان أبوه يكررها على مسامعه

هو وإخوته منذ صغره قبل أن يتعلمها في المعهد، تلفظ بها كأنه يعاقب نفسه (شر الناس من يأكل وحده) فترك الملعقة مغروسة في الأرز كالرمح في الغزال، ووقف واتجه ناحية الباب.

ثم توقف ليفكر. نظر إلى الغرفة الصغيرة ذات النافذة المطلة على أشجار التوت والسور الخارجي للمدينة ثم الطريق الرئيسي، كانت نسمات باردة عبقة برائحة التوت تصل أنفه فتنعشه وتجفف عرقه وترخي أعصابه وتهيئ جسده المتعب للنوم والاسترخاء، نظر للسرير ذي الطابقين، تذكر زميله في الغرفة ثروت محمود ابن مدينة أسوان، والذي سيطول سفره عبر القطار ولن يصل المدينة كالعادة قبل منتصف ليل الغد.

هرش شريف رأسه، ونظر إلى حلق الباب العلوي القريب من طول قامته الفارعة، وسأل نفسه: من الذي يستحق أن يشاركني طعام أمي؟

وظلت أسماء زملائه في الكلية وفي الطابق الثالث، تمر على ذهنه، كمرور الطلبة على طباخ المدينة وهم يقفون صفوفا بالمئات.

مر بباله زميله سعيد، فطرد الاسم من رأسه بسرعة وهو يتذكر مواقف النذالة الكثيرة التي فعلها سعيد معه وسرح فكره " النذل طلبت منه عشرين جنيها قبل سفري بيوم فاعتذر وأقسم لي أنه صرف نقوده كلها وينتظر حوالة بريدية من البلد، الكاذب لعنه الله لم يرني وهو ينصرف من أمام كشك السجائر على الرصيف المقابل

للبوابة، بعد أن اشترى قاروصة سجائر روثمان بها عشر علب، غير الشيبسي والشكولاتة واللب السوبر وشبشب حمام جديد، كاذب وبخيل ونذل، لا والله لا يستحق سم الفئران"

ومن سعيد انتقل إلى زميله معتز فطرده أيضا وهو يقول لنفسه: الخسيس، رجوته أن يعطيني كتاب دكتور سمعان لأنقل منه تعريف التمييز لأنني لم أكن دفعت ثمن الكتاب بعد وسيصبح منظري سخيفا أمام الطلاب إذا سألني الدكتور عن التمييز في المحاضرة التالية بعد أن فشلت وتلعثمت في الإجابة ذلك اليوم، وتهكم الدكتور قائلا: الكتاب أولى من التسكع في الهرم.

ومن الخسيس قفز خياله لرأفت فتنهد بأسى ومرارة كأنه أحيا ذكرى سيئة ثم كلم نفسه: " رأفت. . حسبي الله ونعم الوكيل فيه، قذر ومنافق ولا يتوقف أبدا عن الادعاء بأنه صديق وحبيب وزميل مخلص، رغم أنه من بلدي وزميلي في المعهد منذ الطفولة، لن أنسى أبدا بعدما سرق اللص محفظتي في الأتوبيس وجلست لعدة أيام ليس معي قرش واحد، ولولا أن المدينة الجامعية تصرف لنا وجبات الإفطار والغداء والعشاء، ولولا أشجار التوت الأسود والأبيض والأحمر التي أملأ بطني منها عندما أجوع، لكنت تسولت على أبواب المساجد، لا يوجد هاتف في منزلنا، وهل يعقل أن أتصل بدوار العمدة ليرسل غفيرا لأمي ليخبرها أن نقودي سرقت؟ وكل زملائي الأنذال أقسموا لي أنهم دفعوا مصاريف الكتب والكلية

والمدينة وأنهم هم أيضا أصبحوا مفلسين مثلي، ليس في رقبتي سلسلة ذهبية ولا في يدي خاتم ليس لأن الذهب محرم على الرجال، فكثير من زملائي يتجاهلون هذا التحريم ويخفون الخواتم أثناء وجودهم في الكلية، لكنهم يرتدونها عند الخروج مساء من المدينة لجذب اهتمام فتيات الحي السابع الفقيرات ومناوشة فتيات الحي السادس الأنيقات، ولا أملك أي نقود لا في البنك ولا مكتب البريد، وبعد أن أكدت على رأفت أن يذهب إلى بيتنا ويحضر لي مائة جنيه ووعدني، رغم غمي وقلقي لعدم وجود هذا المبلغ في بيتنا، ومما لا شك فيه أن أمي ستقترض من جارتنا الحاجة زينب، ثم ترد الدين بيضا ودجاجا.

واغتم شريف جدا، وتذكر رغبته الدفينة في ترك الدراسة الجامعية والعودة للبلد لمساعدة أمه وإخوته على أعباء الحياة الصعبة، ورغبته في البحث عن أي عمل في القاهرة، يوفر له جزء من مصروفات الجامعة، كي لا يضع على ظهر أمه عبئا إضافيا، فمنذ وفاة أبيه جعلت من نفسها أبا وأما وحارسا، تربي البط والدجاج وتصنع من نبات البردي المجفف والحبال نسيجا يشبه الستائر، وتبيعه بالإضافة لبيض الدجاج.

وتذكر شريف وجه زميله رأفت وحدث نفسه" قابلني في الطرقة بابتسامة بلهاء بغيضة وأقسم بالله أنه نسي الموضوع تماما! ولم

يؤثر عتابي فيه أي نوع من التأثير فالشخص المدمن للكذب دائما ما يكون وقحا وسمجا وباردا وكما يقال في لغة العامة . . نطع"

وظل شريف يفرز أصدقاءه في ذهنه واحدا واحدا، لكنه لم يعثر على واحد منهم يستحق أن يقتسم معه طعام أمه. فاستسلم وأدار ظهره وسحب الكرسي وجلس ليأكل بمفرده وهو يهمس لأبيه: متزعلش مني يا حاج محدش يستاهل.

وأمسك بالملعقة، وقبل أن يغرف لقمته الأولى تجسد في ذهنه وجه أسمر نحيل، ففقز من مكانه ثم أغلق الباب بالقفل وسار في الطرقة الطويلة الرخامية على أطراف أصابعه، حتى بلغ غرفة زميله في الكلية كامل نور، ثم نقر الباب بالأنامل كاللصوص.

كان كامل يقرأ كعادته التي عرفها عنه جميع زملائه في الكلية والمدينة الجامعية، وكانت كتبه تثير الريبة والحيرة في نفوس زملائه، ورغم صلاته وتدينه كان النقاش يحتدم بينه وبينهم وينتهي نفس النهاية كل مرة: شيوعي، علماني، براني، جواني، إلى آخره.

فتح كامل لشريف الذي ألقى السلام تاما، فرد كامل بمحبة ودعي زميله للدخول، فالساعة تخطت الثانية بدقائق ولابد أن شريف جاء للحصول على رغيف أو سيجارة أو حبة نوفالجين وهي أكثر الحالات وقوعا في هذه التوقيتات المتأخرة.

لم يدخل شريف غرفة زميله كامل بل سأله: عندك أكل؟

دون أي تردد أو تفكير استدار كامل وفتح دولابه وأخرج منه رغيفين بينهما قطعة حلاوة طحينية وقطعة جبنة مثلثة لافاش كيري داخل كيس نايلون وأعطاهم لشريف.

نظر شريف للرغيفين وسأل كامل: أليس عندك طعام غير هذين الرغيفين البائسين؟

فقال كامل: ادخل وانظر بنفسك يا شريف، هذا كل ما أملكه.

ذهب الكرب والهم الذي ارتسم على وجه شريف طوال نصف ساعة من التفكير في أصدقائه الأنذال، وابتهج جدا أنه تذكر كامل، فرغم أنهما زميلان في كلية واحدة ، في قسمين مختلفين، إلا أن وجودهما في طابق واحد من المدينة الجامعية الشاسعة جعلهما صديقين، وتذكر شريف أن كامل قد أهداه عدة مرات قرصا من حلوى المشبك وقطعا من الهريسة والبسبوسة التي يجلبها كامل من مدينته لزملائه في المدينة الذين يختارهم بعناية هو الآخر، رغم الشهرة السيئة لأهل هذه المدينة بالبخل الرهيب، كانت كل تصرفات كامل صعيدية كريمة، وكانت صراحته وصدقه يسببان له مشكلات كثيرة جدا.

قال كامل لشريف: وحدوه. . انت رحت فين يا عم؟

عاد شريف من رحلته وقال لزميله: أعد الأكل إلى الدولاب وأغلق غرفتك وتعال معي.

كامل لحق بشريف دون أن يسأله، فليست هذه هي المرة الأولى التي يرجع فيها زميل من السفر خصوصا يوم الجمعة، حيث تبدو المدينة الجامعية الشاسعة كمستعمرة خالية من البشر، ويستضيف "كامل" على بطة أو محشي ورق عنب أو لحمة مشوية أو فطير مشلتت أو تلة من الفول السوداني المختلط بطين أرضه ولم يتحمص في الفرن بعد.

جلس الصديقان وذكرا اسم الله، قال كامل: ما شاء الله أرز بلبن، جزاك الله كل خير يا شريف.

ضحك شريف وقال: أغطس ملعقتك.

غرس كامل الملعقة فاصطدمت بشيء مجسم لم يعرف ما هو، فسأل صديقه: ماذا في الأسفل؟

قال مبتسما: حمام! هذا الأرز معمر بالحمام، قم بإخراجه وكُلْ حيث كان مدفونا في الأرز.

استخرج كامل ثلاث حمامات هزيلات جدا، لكنه أمسك لسانه وصبر ليفهم ويعرف سر الأكلة التي لم يأكل مثلها أبدا من قبل.

الدهشة عقدت لسان كامل، فالأرز باللبن والسمن البلدي كان قد اعتصر الحمام بداخله أثناء الطهي، وظل الصديقان يأكلان بنهم وتلذذ، حيث سكت الاثنان تماما بينما قالت الملعقتان كل كلام اللذة والاستمتاع حتى شبع الجوع وملأ بطنه، بينما وقفت العفاريت قرب

النافذة تلعق ألسنتها النارية في حسرة على هذه الوجبة العبقرية الدسمة التي لم يشتركوا فيها بسبب اسم الله.

سي بريم

جذب محسن علام كرسيا وجلس بجانبي، ما يزال رغم تجاوزه الستين شابا نشيطا محبا للحياة، نادى صبي المقهى وطلب شاي خفيفا بملعقة سكر واحدة، وضع يده في جيبه وأعطاني حفنة من حبات الفستق المملح، وقال: هل عرفت ما حدث؟

قلت له: متى اليوم أم أمس الجمعة ونحن نصطاد معا في الحاجز الغربي للميناء؟

قال: بعد صلاة الجمعة، بعد الغداء يا كامل.

قلت : ماذا جرى أقلقتني يا حاج محسن.

تنهد وشتم راجح الفران وقال: البليد المستهتر، لعنه الله، بعدما رجعنا من الصيد أعطيته سمكة الدنيس الكبيرة ليشويها لي.

كنت أنا ومحسن وصديقه عمر قد ذهبنا للصيد فجر الجمعة كما تعودنا منذ سنوات، في سيارته المازدا الحمراء، الحاجز الخرساني للميناء يمتد من الشاطئ لعمق كيلومترين، محسن يضع الدراجة الهوائية في صندوق السيارة الربع نقل مع معدات الصيد والسنانير،

ويركبها لبلوغ رأس الحاجز، أما أنا وعمر فنكتفي بالسير للنقطة ستمائة، ونتوقف للصيد.

عمق الماء حيث نقف أنا وعمر ربما يبلغ خمسة أمتار لمسافة مائة متر من الأحجار التي نعتليها، أما هناك عند رأس الحاجز، فالعمق يصل لخمسين مترا وأكثر، وأنا وعمر نخاف هذه النقطة من المصيد، حيث تشعر وأنت فوق الأحجار المصفوفة بطريقة همجية، أنك تنظر إلى البحر من الطابق الثالث، المشهد كان دائما مرعبا لنا ولمئات الهواة، خصوصا إذا حالفك الحظ وابتلعت سمكة ضخمة طعم سنارتك، فالنزول للأسفل لجلب السمكة تعتبر عملية انتحارية، وبعض الصيادين يجلبون هذه الأسماك الضخمة لسعداء الحظ، لكن لا يفعلون ذلك لوجه الله، بل يطلبون العشر من ثمن السمكة، وأسماكنا التي تصل لخمسين كيلو جرام، تقتصر أغلب الأحيان على سمك اللوت، أما الوقار والقاروس فلا نراه إلا في حجمه المعتاد هنا، بين ثلاثة كيلو جرامات وستة، أما سمك الشفش فيكبر حتى العشرين كيلو أحيانا، وعندما نستخرج سمكة كبيرة منها تبكي وتنعي نفسها كخوار ثور.

محسن يعتبرني صديقا مخلصا وابنا، وهو من أصدقاء أبي المقربين، كافح الفقر الأسود بكل صبر وحكمة، كان يقول لي: لا تجزع أبدا، ولما تجاوزت أمواله خمسة ملايين جنيه، جاء طائرا كفراشة وأخبرني، كان وجهه يومها مثل حقل تفاح ناضج، قال

أرأيت: لقد كنت حافيا لا أملك حذاء ولا بيتا ولم أكن أتصور أبدا أن حالي سيتغير هكذا، لا تجزع يا كامل، ربك كبير.

فرحت لمحسن لنجاحه الكبير وتغير أحواله، يومها أشار لي بالأصابع الخمس وقال في فرح: أرانب، وأنا فرحت من كل قلبي، رغم أنني لن أحصل على قطعة وسط ولا فخذ من أرانب محسن علام صديقي العزيز جدا، رغم وقوف ثلاثين سنة بيننا كحاجز خرساني للصيد، لكن في الحقيقة كان وهميا، والشعر الأبيض والأسود إذا تآلفت الأرواح وحلق التكافؤ يحطم المسافة بين العجائز والكهول.

سألت محسن: ماذا فعل راجح مع السمكة؟ ثم تذكرت أنني وعمر لم نرى بالأمس سمكة دنيس مع محسن، فقط عدة سمكات لوت وسمكتي سيف كبيرتين، فسألته: هل رزقك الله دنيسة بالأمس؟

قال وهو حزين جدا: نعم اصطدت واحدة ضخمة، تقترب من ثلاثة كيلو.

قلت: وهل دنيسة ملكية بهذا الحجم ترسل للفرن يا حاج؟ كنت طبختها في البيت، شوربة حمراء بالبصل وشوربة بيضاء بالحب هان والمستكة وصينية بالصلصلة في فرن البوتاجاز كما أفعل أنا.

قال : تعرف مبدئي جيدا، الدنيس الكبير من الإجرام أن تمسه بمقص أو سكين، قيمته في الشوي، كل جزء في السمكة يستحق الأكل حتى تلافيف دماغها.

سألته: ماذا حدث في الفرن.

سعل بقوة وقال: البليد ترك السمكة على مصطبة الفرن مكشوفة للناظرين، وعرفت أن نساء الحارة احتشدن للمشاهدة، هذه تسأله ما هذا يا راجح؟ فيخبرها : دنيسة كبيرة جدا، فتضرب صدرها بيديها وتشهق: يا لهوي! وتقول أخرى يا مصيبتي أيعقل هذا؟ هل هناك دنيس كبير لهذه الدرجة؟ واستمرت حفلة الشهيق والنظرات المندهشة نصف ساعة، قبل أن يدخلها الفرن، الله يحرقه.

قلت: لا حول ولا قوة بالله، وماذا جرى بعد حفلة الحسد؟

قال: البليد راجح، قرقعت بطنه، كان قد سوى السمكة في بيت النار، ثم أخرجها واختبر نضجها بغرس خابور خشبي صغير كالشوكة في رأسها، ثم وضعها على فوهة الفرن في اليمين في النار الحانية لتنضج على مهل بشكل كامل، وركض إلى الحمام، وعندما عاد لم يجد السمكة في الفرن.

قلت مندهشا: أيعقل؟ السمكة سرقت من بيت النار؟

قال محسن: هذا ما حدث.

سألته: ولم يعرف أحد من الذي سرقها؟ الله يعوض عليك، احتسبها صدقة عن عافيتك.

قال: ليس هذا ما أحزنني، فقط أريد أن أعرف لماذا وضع السلسلة العظمية في مدخل البيت بعد أن أكلها؟

زادت دهشتي واتسعت حيرتي، وفكرت بعمق واستغرقت في شرودي، وطاف الصمت عدة مرات حولنا ثم لمعت صورة السارق في ذهني، فضحكت بشكل هيستيري.

قال محسن: ماذا يضحكك؟

قلت: أظن أنني عرفت اللص، لكن أحاول أن أفهم كيف تجرأ أن يدخل بيت النار، وكيف أمسك السمكة في فمه الصغير وهي ملتهبة، وكيف حملها وهي تقريبا في نفس وزنه؟

اسمع دعنا نتخيل، السمكة في بيت النار على يمين الفرن، على بعد نصف متر تقريبا من فتحته، في الميسرة النار تتوهج، القط رأى الفران ينصرف لحمام الجامع، قفز إلى مصطبة الفرن من خلال مقاعد الزبائن الخشبية، وقف أمام الفتحة ونظر للسمكة بشهية وأمل، مد يده ومس بلاط الفرن الساخن، كانت حرارته خطيرة بالطبع، حاول أن يدخل بسرعة ويجذب السمكة بمخالبه، فعل ذلك على مرات عديدة، لابد أنه أحرق مقدمة يديه، لعله فقد شعرات من شواربه، السمكة صارت على عتبة فوهة الفرن، إنها ثقيلة وساخنة

جدا، حاول إمساكها بفمه، أحرقت شفتيه، أفلتها فورا، جذبها بمخالب يده، أسقطها في الحفرة التي يقف فيها الفران، قفز خلفها، سحبها إلى الفتحة أسفل المصطبة، هناك في الغرفة التي تشبه القبر، ظل ينتظر، وبعد ساعة على أكثر تقدير أكلها بهدوء، بعد العصر أنهى الفران عمله، أغلق فتحة الفرن، واستراح قليلا وثرثر مع العابرين كثيرا، وتحدث عن الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي والثورة، شبع كلاما، اتجه ناحية اليسار لحوض الماء، أمسك الصابونة وبدأ يغسل يديه وقدميه ووجهه.

إنها اللحظة الحاسمة للقط الكامن في قبر الفرن، كان عليه ترك عظام السمكة، لكنه أحب أن يحرق قلبك، أمسكها بفمه وتسلل بهدوء إلى خارج الفرن دون أن يشعر البليد به!

لم يستطع محسن كبت غيظه وغضبه وسب خيالي الشرير، اعتدل وأشعل سيجارة بلهفة، وقال بغضب: سأذبحه إن ثبت لي أنه الفاعل.

قلت: ذو الرأس الكبير فعلها، أنت لا تتركه في حاله أبدا، الأسبوع الفائت قذفته بحجر وهو يتزوج في المساء على عتبة محلك وهو مغلق، لابد أنه ثأر منك بطريقة رائعة.

انتفض محسن علام واقفا وهرول باتجاه الحارة والبيت، جذب عودا من الخشب من أمام ورشة نجارة، وانطلق وهو يحمل نية شريرة في قلبه، دعوت الله ألا يقع هذا القط المسكين في يديه حتى

ينسى السمكة ويسامحه على جريمته المزدوجة، ضحكت بصوت مرتفع وتذكرت كلمات جدتي.

: تكاد تكون في فمك ثم تقسم لغيرك.

** الدنيس من أفضل أسماك البحر المتوسط على الإطلاق، واسمه في الإنجليزية سي بريم.

الإعلامي

منذ طفولته وهو يعشق الأضواء، ولم تكن حياة أبيه والبيئة التي تحيطه تمنحه أي فرصة لتحقيق أمله في الشهرة.

الأب صاحب مقهى، ويحب من حين لآخر أن يبدو شخصاً مهماً وواصلاً، فكان يوفر لنخبة من زبائنه الميسورين مخدري الحشيش والأفيون.

ذكي الابن الوحيد الذكر على خمس فتيات، كان ديك أبيه وروحه وأمله، ولسوء حظ ذكي الوسيم الأبيض الشاحم، أن روحه وعقله وجسده اتفقوا معاً على كراهية المدرسة والمدرسين والتلاميذ والكتب، وما أن أنهى الشهادة الابتدائية حتى أقسم لأبيه أنه سيلقي نفسه في النيل ليموت غرقاً إذا أجبره على العودة للمدرسة، واختار ذكي المقهى المقام على النيل في مصيف الفقراء، المليء بعشش البردي والصفيح والقاذورات والأشخاص الخطرين.

حياة ذكي كانت مثيرة، فهو يرى كل يوم وفي الصيف خصوصاً جمال الدنيا وخطوة الموت.

ففي بداية اليوم يأتي المصطافون، وينزل الأولاد والبنات والنساء الجميلات لماء النيل المالح، فالمسافة من شاطئ كازينو النورس للبرزخ ، حيث يلتقي النهر بالبحر، ثلاثة كيلو مترات فقط.

رغم تركيز ذكي في تقديم المشروبات الباردة والآيس كريم للزبائن، وضبط الشيشة وهز مصفاة النار باحتراف، كانت عيناه تطوفان على كل أنثى فاتنة أو قبيحة، ولم يكن يمر يوم حتى يغرق شاب أو طفل، أما غرق الفتيات فكان أمراً نادراً للغاية، فهن يلتزمن بتعليمات الأمهات وشقاوتهن محسوبة.

اعتاد ذكي الاتصال بفرق الإنقاذ النهري والإسعاف، وذات مرة أجرت معه مذيعة لقناة محلية لقاء قصيراً، يتحدث فيه عن أسباب الغرق، وأخذ يمد لسانه بلهجة أهل المدينة الساحلية ويتحدث عن الدوامة وخطرها وقدرتها على الإمساك بأقدام الغرقى وجرهم للأسفل.

ذاع صيت ذكي بعد ظهوره على الشاشة الفضية، وأعجبه ذلك وأحبه، وفي المساء اشترى كاميرا تصوير فوتوغرافي، ثم تطورت لكاميرا تصوير فورية، يلتقط الصورة فتخرج من جوف الكاميرا فيضعها في جيبه، وبمعالجة سريعة يقوم بتحميضها الفوري وإعطائها للزبون، وبدأ يكسب من تصوير المصيفين أكثر من دخله كعامل مقهى.

تطورت علاقاته الطيبة مع المخبرين والعساكر وأمناء الشرطة، ومن هذه البوابة أصبح صديقاً لعدة ضباط شبان.

اشترى كاميرا فيديو، ووثق مشاهد استخراج جثامين غرقى، وصنع أفلاماً قصيرة لصيد السمك والأسطول الكبير وللبحر والشمس والشماسي وملايين الناس على الشاطئ .

جاء الإنترنت وجلب العديد من الفوائد لذكي، وصار يقوم بعمل مداخلات مع قنوات كثيرة، وذات مساء وقعت جريمة قتل في الجبل وراء المدينة الساحلية، تاجر مخدرات مقتول.

وعمل ذكي تغطية صحفية جيدة للحدث، وفي مرة أخرى نقل معاناة مركب غريق وأجرى لقاءات مع أهالي المفقودين.

عام بعد عام أصبح صحفياً شعبياً لامعاً، لكن ما جعله نجماً كبيراً، هو ظهور فيس بوك.

قام بإنشاء جروب وصفحة، وأسماها أخبار وحوادث الساحل، وصارت لديه قدرة على السبق والتفرد وعرف القهوجي الشاب كلمة: حصرياً.

رغم تسربه من المدرسة كان موهوباً وذكياً وصحفياً بالفطرة، يسبق المحطات والجرائد والصفحات، ولأنه صار مصدر ثقة وعرف سر المهنة مبكراً، فقد كان يحصل على صور حصرية لقتلى وغرقى

وحرائق وسرقات من جميع أنحاء مدن بحري، بنظام أرسل لي المادة وحدي وأنا أدفع لك.

انتشرت ظاهرة صحفي الفاسبوك، فضمت مدرسين و سماسرة وعمالاً وتجار مخدرات وبلطجية وفاشلين، وسيدات يائسات وموظفات حكوميات ومعلمات، وعشرات من الناس أعجبتهم اللعبة، وأصبح سهلاً لأي شخص إنشاء جريدة محلية ودفع مبلغ لوكالة قبرصية تمنحه رخصة.

وكانوا مع الوقت يعرفون أسرار المهنة، التحقق من الخبر، المصداقية، طرح الحقيقة عارية، الحصول على وثائق، التلاعب بالألفاظ لتغيير الأسماء والألقاب، لكن لم يكن يتوفر شيء مهم جداً، شرف المهنة.

فيمكن لأي ثري شراء أي قلم أو صفحة أو جروب، يخترق الصفحة بدفع مبالغ شهرية مقابل إعلان على الجروب الذي يصل عدد أعضائه لمليون شخص.

ذكي أعجبته حياة الإعلامي وأصبح يحس وهو يمسك بالميكرفون الملون في يده ويتأمل شعار القناة، أنه إعلامي حقيقي ككل النجوم المحترفين المحترمين أصحاب السلطة والنفوذ والمال، وكبرت في رأسه وعاش الدور وأتقنه.

في ليلة ممطرة، ملأت مياه الأمطار كل شوارع المدينة، وحطمت كازينوهات عديدة تطل على البحر، ولأنه كان يحس أنه أكثر أهمية من المحافظ ورئيس المدينة، فقد اتصل بالمهندسين وعمال الصرف، وجاءت سيارات شفط المياه، وعمل تغطية ممتازة بالفيديو لهذا الحدث الجليل.

تلك الليلة انفجرت ماسورة غاز طبيعي ضخمة، تمر عبر الأرض الزراعية لقرية قريبة من المدينة، كان لهب النار يظهر من مسافة عشرة كيلو مترات. الصحفيون المحترفون الرسميون، من مراسلي الصحف الكبرى، وقفوا بعيداً لتغطية الأحداث، وكان لهب النيران يرتفع خلف ظهورهم وهم على مسافة كبيرة آمنة.

لكن ذكي كان مفتوناً بكلمة (حصرياً) أخذ صديقيه، حملوا الكاميرا الحديثة والمايك والهاتف المتطور، وظلوا يقتربون أكثر وأكثر من موقع الانفجار.

تأخر المحافظ ومدير الأمن نصف ساعة فقط قبل بلوغ المكان، وقبل توافد الخبراء المتخصصون لإصلاح الماسورة.

كان ذكي يقترب ويقترب، حذره صديقاه من خطورة التجربة، وقف هناك شامخاً وبدأ العمل، ثبت صديقه كاميرا الفيديو على الحامل المعدني وشغل الكاميرا، وبدأ بثا مباشراً عبر الهاتف أيضا، وتراجع عدة أمتار لعدم قدرته على تحمل وهج النار.

ظهر ذكي في منتصف الصورة، كان لهب النار يبدو أنه يطلع من ظهره وقفاه، قال بثقة: سادتي سيداتي آنساتي، مساء الخير، معكم ذكي البرش، المراسل الحصري للقنوات الفضائية، حصرياً في بث مباشر من موقع انفجار خط الغاز الرئيسي بقرية البساتين.

انهمرت القلوب الحمراء والإعجابات ثم الأسئلة، أخبرنا عن الأوضاع عندك ، هل سقط ضحايا؟ ما هي الأضرار حتى الآن.

سمع المشاهدون صوتاً هائلاً متتالياً بووم بووم بووم، ثم شاهدوا وميضاً مرعباً كانفجار قنبلة ضخمة.

ذابت الكاميرا تماماً، وانقطع البث، ولم يكن وقتها في منتصف عشرين عشرين، وسيلة يمكنها نقل رائحة شواء اللحم الآدمي لأنوف المشاهدين.

خُصْلَاتُ مَها

كَان يَحْلُو لَمِّهَا لُطْفِيّ - الْبَيْضَاء الْبَضَّة الْجَمِيلَة ، المهندسة الشَّابَّة المتخصصة فِي الحاسبات - أَنْ تَخْرُجَ إلَى الشُّرْفَة فِي شِقِّهِ أَبِيهَا ، فِي الطَّابَقِ الثَّانِي مِنْ عِمَارَةٍ سَكَنِيَّةٍ مِنْ خَمْسَةَ طَوَابِق، بِكَامِل زِينَتِهَا .

تضع أحْمَرَ الشِّفَاهِ اللَّامِع، الْكُحْل، كِرِيمَ الْأَسَاس الَّذِي لَا تَحْتَاجُه أَصْلًا، فَهِي أَجْمَلُ مِنْ حَبِّهِ بَرْقُوق بَيْضَاء، تَتَعَطَّر بِنَفْس العِطْر البَاهِظ الثَّمَن، وَلَم تَتَوَقَّف عَنْ شِرَائِهِ مُنْذُ سَنَواتٍ رَغِم تَدَهْوَر حَالَتِهِم الْمَعيشِيَّة بِسَبَبِ خُرُوجِ أَبِيهَا إلَى الْمَعَاشِ الْمُبَكِّر وانكماش الرَّاتِب الْكَبِيرِ إلَى الثُّلُثِ، لَكِن تَرَقِّي الْأُمّ لِدَرَجَة مُدِير عَام صَنَع توازنا مَعْقُولًا، كُلّ شَيْءٍ فِي بَيْتِ مَدَامْ نَهَى وَالِدِة مَها يَتِمّ تَدْبِيرِه بِدِقَّة حِسَابِيَه ، فَهِي مُحَاسِبَةٌ وخبيرة ضَرَائِب ذَكِيَّةٌ وَيَقَظَة .

مَها جَمِيلَة جِدًّا، لَمْ تَجِدْ وَظِيفَةً بَعْد، يَزِيد طُولُهَا عَنْ مِائَةِ وَسَبْعِينَ سنتميتر، وَجَمَالُهَا الجَسَدِيّ لَا يُخْفِيه أَيِّ نَوْعٍ مِنْ الْمَلَابِسِ، فَإِذَا

ارْتَدَّت بَدَلِة مِنْ الجينز، أُخْرجَت الْأَشْجَار ألسنتها وتبسمت كِلَاب الشَّوَارِع، وَإِذَا ارْتَدْت عَبَاءَة سَوْدَاء وَاسِعَة محتشمة، تَرَكْت شَيَاطِينَ الْإِنْسِ أَشْغَالِهَا وَتَتَبَّعْت خَطَاهَا، كَانَت سَاحِرَةً فِي كُلِّ حَالَاتِهَا، رَغِم أَنَّهَا ضَخْمَةٌ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ: فَتَاة جَمَل.

تطلق شعرها حرا، تعطيه الكثير من الرعاية والاهتمام، وفي كل مرة تذهب للكوافيرة الخاصة بها، تطلب منها أن تصبغ خصلة بلون الذهب، من ناصية رأسها حتى نهاية شعرها الطويل.

كانت تلاحظ نظرات كامل نور الدين، الشاب الأسمر الأنيق الجذاب والأعزب، الذي يسكن قريبا من العمارة التي تسكنها، وتعرف من جارتها أنه من أبناء الحي، وترك عمله في الصحافة المحلية وامتهن العمل في الحاسبات وكاميرات المراقبة والبرمجيات والستالايت، فهو صديق والد صديقتها.

رغم أن مظهره أعجبها، وأربكتها نظرته العاشقة وابتسامته الحالمة، كابرت قليلا لفترة، قبل أن ترد على ابتسامته بابتسامة.

القلب المشغول لا يفتح الباب لأي طارق، ومها غارقة في الحب مع زيدان وهو شاب وسيم طويل يملك شركة صغيرة للحواسب الآلية والهواتف الذكية في وسط البلد، أعزب وتجاوز الثلاثين، تورطت معه في العشق، وعرفت وسائل منع الحمل.

عشاق مها كثيرون جدا، يطوفون كل يوم حول عمارتها من بعد العصر بساعة حتى العشاء، وعندما تخرج للذهاب لحفل خطوبة أو زفاف، يتتبعها المغرمون الأذكياء، كأن الأمر صدفة، ولا أحد يهتم في الزحام بالغرباء في الحفلات، فأقارب العريس يظنون ذلك الشاب من أقارب العروس، وهكذا يظن هؤلاء وهؤلاء ويحصل المتطفلون على فرصة للتواجد والحصول على حلوى الجاتو والعشاء الفاخر أحيانا.

زيدان، أرغمته مها على التقدم لخطبتها وهددته، لكنه لم يكن يفكر في الزواج من فتاة أعطته تفاحة حواء بدون زواج، ويردد كلمة أبيه دائما، من تأمن لك قبل الزواج لا تأمن لها بعد الزواج، ظل يتهرب ويؤجل، وكبرت الخلافات، وفكر بخبث أنه لو أهان أباها وأخاها الوحيد وإذا وصل الأمر لإهانة الأم فسوف تفسد الزيجة ويخلع هو.

تعارك الأب والابن مع زيدان كما دبر وخطط، ولأن مها ملولة جدا وتعشق التغيير بشكل دائم، فقد فكرت في الحصول على حبيب جديد، يوفر لها ثلاثة أشياء ضرورية، يسقي الورد، ويشتري العطر والشكولاتة ويتكفل بمصاريف الكافيتريا والرحلات وفاتورة الهاتف والإنترنت، ويكيد ويحرق قلب زيدان الخائن.

اختارت صفوت الوسيم الأنيق شبه العاطل، هو في السابعة والعشرين وهي في الرابعة والعشرين، وغرقا في الحب.

لكن صفوت الذي يسقي الورد جيدا فقير، حقق لمها ضرورتين وترك فجوتين، وكان عليها أن تحل هذه المعضلة.

الشرفة لا تصلح لإنشاء علاقة غرامية، ليس هناك إطار يضم العاشقين، لذلك لم تتح الفرصة لكامل، أن ينفرد بمها ويخبرها كم يعشقها.

الإنترنت ينتشر وأصبحت السناتر تنافس محلات البقالة، ففتحت مها واحدا، بقرض بنكي صغير بفوائد كبيرة، ونزلت من الشرفة إلى أرض الحياة والأخذ والعطاء والمنافسة والمعارك أحيانا.

كان حب مها لصفوت عاصفا، وتمنت أن تحصل عليه كزوج، لكن صفوت لم يفكر في ذلك أبدا، وفي صباح جنوني، حيث يلتقي العاشقان في شقة مها، بعد ذهاب الأم للعمل وذهاب الأب لصيد السمك، وقعت المصيبة وحبلت.

في الشهر الثالث لاحظت الأم، واعترفت مها، وفشلت كل المحاولات لإجهاض الجنين، وتفتق ذهن مدام نهى عن فكرة شيطانية.

الأم الأربعينية أخبرت الأب الخمسيني المنهك أنها حبلى!

بعد أكثر من عشرين عاما من ميلاد مها، تقول الأم للأب أنها حبلى، ولأن الأب كان رجلا جيلاتيني، لم يهتم كثيرا وظل معتزلا

في عالمه الخاص، بين بوصة الصيد ولعبة الطاولة مع أصدقائه القدامى خاصة حسني.

ولدت مها في المصيف، دبرت الأم كل شيء، الأب في المدينة مع الابن، والأم مع الابنة، وجاءت نيرمين الجميلة للدنيا، وسوف يخبرونها عندما تكبر أن نهى أمها وأن مها أختها، لكن ليست كل الأسرار تبقى خفية للأبد.

تجربة الحمل كشفت لمها ولأمها أن صفوت شاب تافه ونذل، وبمفهوم العامة هو عيل صغير لا يعتمد عليه، وساءت العلاقة بين العاشقين وانقطعت لفترة.

بعد مرور الأزمة، عادت مها لعملها.

كان كامل خجولا ومرهفا، شابا كريما ورقيقا وكما يقال عن الطيبين: مجرد مغفل.

تردد كثيرا أن يذهب لكافيه الإنترنت الذي تملكه مها، رغم احتراق قلبه شغفا وعشقا لهذه الفتاة التي سحرت عقله بجمالها، مر عمره حتى بلغ الواحدة والثلاثين ولم يقبل فتاة، ولا يعرف شيئا عن بدن حواء، سوى ما رآه من صور وفيديوهات، لكن الإنترنت جاء بالكوارث.

المواقع القذرة لم تعد تعرض أفلاما لفتيات جميلات، لقد صارت أدق تفاصيل الحياة الخاصة بين رجل وامرأة أمام العدسة من مسافة قبضة يد، وتمكن الهوس من المحرومين والمتلهفين.

كانت الأقدار تضع في طريق كامل العديد من الفتيات الصالحات للزواج، فأمه تخبره عن الفتاة فلانة، وعمته تشجعه على التقدم لجارتها المتدينة، والجارة الطيبة تجيء إلى البيت لتطلب يده لابنتها الفاتنة التي لا تقل جمالا وسحرا عن مها، لكن الغواية كالرمال المتحركة، ما أن يغرس الإنسان قدميه، حتى يتم ابتلاعه.

كامل خجول ولم يخطر بباله للحظة أن مها صارت بائعة حب على نطاق ضيق ومختار بعناية وحرص.

أظهر لها كرمه ولطفه واهتمامه وهداياه، تحدثا كثيرا، ونشأت بينهما علاقة حب عبر الياهو والهوت ميل.

عض يده عندما كشفت له جمالها على الكاميرا، أقنعته بزيارتها، كان جبانا جدا ليفعل ذلك، فطلب منها أن تأتي هي إليه في وكر الملذات.

جاءت مها، كامل الذي لم يقبل فتاة من قبل كان خجولا وجاهلا، وانتهى اللقاء الأول في الحديث والأكل والضحك.

مها ماكرة، لم تكشف سرها لكامل، ولما رأت جهله وطيبته وسذاجته لم تصدق ما تراه، وتركته في عمائه، فهي لم تكن تحبه ولا يحرقها الشوق.

اهتمام كامل بمها وتواجده لأكثر من عشر ساعات أحيانا في كافيه الإنترنت، استفز شبابا كثيرين، وأخبر أحد الشبان صفوت بما يجري.

تقرب صفوت من كامل، لم يكونا صديقين حميمين من قبل، لكن يعرفان بعضهما وبينهما خيط مودة رفيع خفي ممدود.

استلطف كامل صفوت وأحبه وصارا صديقين، يتنزهان معا، يلعبان الدومينو ولعبة ميدل أوف أونر على الحاسب، وظلا يقتربان بسرعة، وخلال أسبوعين فقط سقطت بينهما الحواجز والمسافات.

قال صفوت لكامل وهو يبتسم ابتسامة ماكرة: هل أعجبتك التفاحة البيضاء الدسمة؟ !

وأثناء تفسير صفوت للسؤال اللغز عرف كامل أنه المغفل الأكبر في العالم.

في لقائه الثاني بها انتقلت العلاقة من الضحكات إلى الرعشات، رغم دهشتها لجرأة كامل المفاجئة، وأخذت الأسرار تتهاوى في حجر كامل حتى عرف سر الطفلة من صفوت.

رغم إدراكه أنه مغرم ببائعة حب أحبها بالفعل، وكانت هذه مصيبة كبيرة سببت له أزمة نفسية وصراعا، لقد أدمنها وعشقها بكل ذرة في كيانه، أما هي فقد تعلقت به كضرورة وأصبح بالنسبة لها عاشقا وأبا وصديقا، وانتشرت رائحة العاشقين.

الأم لم تكن غافلة عن هذا الغرام المستعر، أما الأب فكان في عالم مختلف.

الفضائح جاءت من ثقب صغير، فالرجل العجوز صديق الأب وزميله، كان يطمع في الفتاة منذ طفولتها، ولما نضجت وظهرت عليها بوضوح علامات النساء رغم أنها عزباء، تهيأ للحصول عليها في أقرب فرصة، وأنفق آلاف الجنيهات عليها ببذخ وإسراف، وكان يتودد إليها بقوة وتنفر هي منه بقوة أكبر.

حسني العجوز الثري زميل الأب رأى كامل مرتين، وأدرك بدون شكوك أن هذا الشاب الذي تتحول مها في حضوره إلى فتاة مهذبة حشيمة، لا تمزح ولا تضحك بصوت جهوري كعادتها، هو رجلها السري.

ففكر في التحدث مع كامل، لكن بعد أن جمع بعض المعلومات عنه وعن عائلته الكبيرة القوية، صرف الفكرة عن رأسه، ولجأ لحيلة أخرى.

كتب رسالة للأب، ونسخ منها نسخا، أرسل واحدة لوالد كامل، وأخرى لعمه كبير العائلة.

في الرسالة كتب حسني العجوز كل أحقاد قلبه وأحزانه، كتب العبارات الفاحشة وأسمى الأشياء بأسمائها، وكانت الرسائل الآتية من مجهول مصيبة كبيرة، وبدأت الفضيحة تتسرب.

حمل الأب الرسالة الورقية بمظروفها الأبيض، وأخذ مصحفا وذهب لكامل وأعطاه الرسالة.

كامل الطيب المحتشم ابن الأصول لا يستطيع تقبل فكرة استحلال فتاة في الحرام، بينه وبين نفسه، فكيف يمكنه الاعتراف بهذه الفضيحة؟

كان مشهد الأب الباكي الحزين المنكسر مرعبا جدا بالنسبة لكامل، أحس بندم عظيم يعصر قلبه عصرا، ولم يجد أمامه أي مخرج سوى أن يطيب خاطر الأب الجريح ويقسم له أنه ليس بينه وبين ابنته أي شيء يغضب الله، وأقسم له أنه يحبها ويوقرها وفي غمرة الاندماج والشعور بالندم طلب كامل يد مها من أبيها للزواج، وقال لنفسه: ربما يسامحني الله إن طببت هذا القلب الجريح ولو بكذبة.

أحس الأب براحة كبيرة، ولأن ثقته في ابنته كانت هائلة جدا فقد اعتبر الرسالة وشاية قذرة تحاول تلطيخ سمعة جوهرته المصونة.

وانصرف دون أن يرد على طلب كامل.

بعد أسبوع واحد قرر الأب بيع الشقة والانتقال لمنطقة أخرى، ونفذ رغبته، وانتقل لشقة أكبر مرتين من شقته القديمة في عمارة أهلية لم يسكنها أحد بعد، وظل كامل ومها يلتقيان لكن بصعوبة أكبر من الماضي.

قال كامل لمها: غدا سأجيئ إلى بيتكم الجديد لطلب يدك.

لكن مها رفضت الفكرة ولم تستطع أن تكشف له السر، أن والدها الطيب يكرهه كراهية الموت.

في المساء ذهب كامل لمحل حلويات فخم، اشترى أكبر علبة حلويات منوعة، مصفوف بها كل نوع من الحلوى في شكل دائرة بقطع صغيرة، بسيمة وهريسة وبسبوبة وبقلاوة وعيش الغراب وجزاريه ملبن بالبندق وملبن حبل بالجوز، كان طبقا مدهشا ومكلفا، أخذه وذهب لزيارة مها في بيتها الجديد.

استقبله الأب ببرود وجفاء، وكرر العاشق طلبه ورغبته في خطبة مها، لكن الأب رفض بقوة وحزم.

خرجت مها مع أمها وصافحا كامل، ولأن الأجواء كانت خانقة ورائحة الكراهية والقرف من وجوده أقوى من رائحة الحلوى، استأذن وانصرف.

قال الأب بحزم لزوجته: هذا الشاب ممنوع أن يدخل هذا البيت مرة أخرى، وهذه الحلوى تخلصي منها في مقلب الزبالة.

قالت الزوجة: حاضر كما تشاء.

نهض الأب وترك الصالة وارتدى ملابسه وخرج إلى المقهى.

فتحت مها الطبق المستدير الكبير، ثم شهقت وهي تقول: يا روحي يا كامل يا حبيب قلبي، وأخذت تأكل بنهم، وأخفوا بقية الحلويات بعناية كي لا تقع في يد الأب.

قامت الأم وأحضرت كيس سكر، وأفرغته في طبق الحلوى الفارغ، ثم سكبت عليه الماء، حتى تعجن، لفت الطبق بالورق الدعائي الذي جاء به، أعادت ربط الشريط الملون بنفس الطريقة الجميلة، وقذفت به إلى منور البيت فتمزق الورق.

في المساء سأل الأب زوجته عن طبق كامل؟

قالت: رميناه في منور البيت.

في الصباح فتح الأب شباك المنور، ونظر بتحقق، فرأي آلاف الأسراب من النمل الأسود تحولت إلى غمامة سوداء مستديرة حول طبق الحلوى المزيف، نادى زوجته وأراها المنظر.

ضحكت بمكر وقالت: رزق النمل، وفتحت باب الشقة وذهبت إلى عملها، بينما أفطر هو على مهل وشرب شاي، وحمل أدوات الصيد وذهب إلى البحر.

اتصلت مها بكامل وأخبرته أنها تنتظره، أحكمت إغلاق باب غرفة أخيها الغارق في النوم، اطمأنت على الطفلة النائمة، مشت في الشقة الواسعة بدلال، تأملت الخصلات الذهبية الثلاث، لقد أضافت اثنتين، ضغطت جهاز فتح الأبواب الإلكتروني فانفتح بقدر أصبع، فتحت باب الشقة بالقدر نفسه، دخلت إلى الدوش، وانهمر الماء في البانيو، أغلق كامل باب الشارع وصعد بأريحية وجرأة لا تلائم طبيعته، وجد باب الشقة مواربا، تجرد وغاص في البانيو.

في الأسبوع التالي، كان صفوت وكامل يلعبان الدومينو، صفوت قال: الخصلات الذهبية الثلاث في البانيو مذهلة!

سقطت السيجارة من بين شفتي كامل ونظر لصفوت وسكت وفهم أخيرا سر خصلات مها.

روح عالية

ذهبت مها لطفي مساء الأحد إلى سوق المدينة بصحبة أمها نهى، لشراء مقلاة تيفال وحلة طبخ جديدة، واحتياجات المنزل لشهر كامل من صدور الدجاج واللحوم المجمدة والأجبان والبهارات والخضروات.

أعجبت مها بطاقم ملابس خاص بالعرائس، وأقنعت أمها بصعوبة لتشتريه لها، فمدام نهى تحسب كل قرش وتعد قائمة بالمشتريات، ولم تشأ ازعاج ابنتها الوحيدة المدللة على ولد واحد.

في طريق العودة للعمارة السكنية، أقنعت مها أمها بالمرور على محل كامل نور الدين.

كان كامل ومها عاشقين منذ عام ونصف، ولم يتطور هذا العشق للزواج لأسباب كثيرة، والكذبة التي يتعايشون بها أمام الناس هي: قارئ فاتحتها.

رحب كامل بمها وأمها، جذب كرسيين وأجلسهما وغاب لدقائق وعاد بالشكولاتة الجالكسي والبيبسي، لكن الأم منعها السكري من الاستمتاع فأنجزت الشرهة مها المهمة.

ودار حوار تمثيلي سمج كالعادة بين الأم التي تعرف كل شيء وتدعي الجهل التام وبين كامل المفتون بمها.

كان المحل في شارع جانبي مغلق ينتهي بجدار منزل، فالبيوت العشوائية تتلاصق كل ثمانية بيوت في كتلة واحدة، ونادرا ما تجد أربعة بيوت في كتلة مستقلة، أما مشاهدة بيت وحيد وحوله أرض فضاء أو حديقة أو شوارع واسعة بين البيوت المجاورة فهذا حلم.

قطع أصوات ضحكات مها صوت فتاة ملهوفة تلقي السلام، نظر كامل إليها ومسحها بعينيه في نظرة خاطفة، كانت قمحية البشرة، قصيرة لا تتجاوز المتر ونصف كثيرا، أنيقة ومرسومة البدن، وسطها ضيق وليست نحيلة ولا سمينة، عيناها سوداوان لامعتان بذكاء ودهاء فلاحة متعلمة.

وقف كامل ورحب بالفتاة وقدم كرسيه لها وطلب منها أن تجلس.

نظرت الفتاة لمها وهي نظرت لها، وابتسمتا لبعضهما ابتسامة الضرائر.

أعطى كامل ظهره لمها ونظر بتعمق في عيني الفتاة، فلمعتا أكثر وأكثر، ألح عليها أن تجلس وذهب واشترى لها علبة مناديل وقطعة شكولاتة جالكسي وزجاجة كوكاكولا، وقدم لها واجب الضيافة.

كانت مرهقة، وجهها يتعرق، وصدرها يعلو ويهبط، كانت تنهج كمن هربت من كلب مسعور طاردها لمسافة طويلة.

ألح عليها لتأكل وتشرب، سألت عن زجاجة ماء، فهرول واشترى لها زجاجة مياه معدنية.

كانت مها منزعجة جدا لهذا اللطف الزائد، وكانت كل مشاكلها مع كامل بسبب لطفه وكرمه وعلاقاته الكثيرة التي لا تعرف إلى أي درجة وصلت بعشيقها مع الأخريات.

سألت الأم الفتاة الغريبة عن اسمها و بلدها لأن لكنة لسانها غريبة عن أهل هذه المدينة.

قالت: اسمي عالية، من المنصورة، وعندنا مطبعة وأنا أوزع الطلبات الصغيرة على الزبائن بنفسي.

- أي طلبات؟ سألتها مها.

- كروت شخصية، إرشادات رمضانية، مصاحف صغيرة لأعياد الميلاد، ملصقات صغيرة جدا للفاكهة.

نظر كامل في عيني عالية وغرقت هي في عينيه، ونفخت مها وزفرت ووقفت ونار خديها تمتد لمتر أمامها، أرادت أن تنصرف لكن كامل طلب منها برفق أن تبقى.

بعد أن استراح وجه عالية وتألق وداعبه النسيم اللطيف البحري، وجففت عرقها بمنديل، وأكلت الجالكسي وشربت، بدت أكثر جمالا ونضارة وحيوية من هيئتها عند أول اللقاء.

عندما جلست لاحظ أن بدنها جميل لدرجة كبيرة، وأنها بلا كرش ولا ترهلات، وكل تفاصيلها متناسقة ومتناغمة رغم قصر قامتها، لقد أعجبته جدا دون أن يشعر، لكن الأجمل أنها غرقت في غرامه من أول نظرة.

سألها مرة أخرى عن هدفها الذي جاء بها لهذا الشارع المغلق.

قالت: أسأل عن مجدي خروب، قال لي الكثيرون أنه صديقك ويجلس عندك.

كانت مها قد وصلت لدرجة الغليان التام، ووقفت وانصرفت مسرعة بدون أي كلمة، وتبعتها أمها، لحق بهما وحاول تلطيف الأمر، لكنها قالت بذكائها الاجتماعي وابتسامتها الكاذبة: لقد تأخرنا يجب أن نذهب إلى البيت كي لا تتلف اللحوم والدجاج والأطعمة التي معنا في الأكياس.

حاول إقناعها بتوصيلها وحمل الأكياس منها، لكن رفضت بحجة ألا يعرف أبوها أنهما التقتا به وانصرفتا.

عاد كامل لعالية وعرف منها أن صديقه مديون بتسعين جنيها لها، وتهرب منها عشرات المرات ويغلق هاتفه المحمول دائما.

دفع هو المبلغ بعد إقناع مرير وضحكات، وطلب منها أن تطبع له ألف كارت شخصي وأعطاها رقم الهاتف، وعندما أخبرته أن الساعة بلغت الثامنة وعليها أن تذهب فما يزال أمامها سفر لساعة ونصف، أصر على توصيلها.

سارا معا، عبرا الشارع العمومي إلى شارع الكورنيش، وأكملا السير إلى موقف السيارات، دون أي قلق منهما للدقائق المهدرة في هذا المشي الرومانسي.

كانا يتعمدان الابتعاد قليلا وترك مسافة بينهما، لكن أثناء السير كان يحتكان عفويا ويلتصقان، وعند عبور الطريق للجهة الأخرى أمسك يدها الناعمة وتركتها تغمض أصابعها في راحة يده.

اتصل بها بعد ساعة ليطمئن عليها، لكن لم ترد، وبعد ساعة أخرى طمأنته أنها في البيت، تكلما قليلا وأغلقا الخط.

في منتصف الليل تعاركت مها مع كامل بسبب رقته السخيفة مع عالية، لكنه امتص غضبها، أراد أن يخبرها بشيء أحسه لكن لم يجرؤ، وكانت هذه الليلة أقصر الليالي وأبردها عليهما.

نام وهو يفكر في عالية، رسم تفاصيلها البديعة ووضعها في مقارنة مع فتاته الطويلة الضخمة، لم يفكر أبدا أن يحمل مها بين ذراعيه فهو أمر مستحيل.

لكنه استغرق في رسم لوحة جمال عالية في رأسه، ولاحظ أنها متناسقة لدرجة مدهشة، ملامح وجهها الرقيق المنحوت كمعشوقة أحلام يقظته الممثلة سوسن البدري، لكن عالية أقصر كثيرا.

وتخيل كامل الذي لا يزيد طوله عن مائة وأربعة وسبعين سنتميتر، كيف تكون لحظة قرب بينه و عالية القصيرة، لقد تأمل هذا الفارق جيدا أثناء توصيله لها، هناك ربع متر كامل بينهما، أكل شفته ونام على جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم على ظهره، وبدأ جمر جديد يفترش هذا السرير الحزين، وأخذت صورة مها تتبخر شيئا فشيئا حتى خرج الدخان من شيش الشباك فوق رأسه.

ظنت عالية، أن كامل سيلاحقها، سيتصل بها، كما يفعل مئات الرجال والشباب الذين تطبع لهم كروت ويتحرشون بها بكلمات منمقة تحت ستار الأبوة حينا والإخوة أحيانا، لكنها كانت تدرك حقيقة كل نظرة وكل كلمة بفطرتها السليمة كفتاة ريفية محتشمة.

مر أسبوع و لم يتصل ولم يرسل رسالة، وكانت عالية تهوى شراء خطوط جديدة للجوال بأرقام جديدة غير مسجلة بالبطاقة، وظلت تتصل به، تسمع صوته، تتنفس نبرته، كأنها تتشمم عطره، رائحة أنفاسه، تتشبع به، تتنهد، ثم تعاني لدقائق.

يتقين أن أنثى هناك على الطرف الآخر، ثم يغلق هو الخط بعد دقيقتين لتكسير أعصابها، فتعيد الاتصال ولا تنطق.

كامل لم يكن يعرف أن عالية هي من تتصل، لقد ذهب ذهنه بعيدا، إلى حبيبته الأولى القديمة، حبيبة صباه وعنفوان شبابه، الفتاة الحسناء البضة التي لم تحبه أبدا، ولم تفكر في أي لحظة من حياتها أن تقبل به زوجا لها، وكان جرحه العميق يصنع منه عربيدا ببطء، بعد أن ظل صامدا حتى بلغ الواحدة والثلاثين على طريق الاستقامة الذي يشوي القدمين والقلب.

في يوم أحد، في التاسعة صباحا، في وكر الملذات، كان كامل ومها يغرقان في الحب.

رن هاتف كامل، أمسكت مها الجوال ورأت أن الرقم بدون اسم، سألته: هل تعرف صاحب هذا الرقم؟

- لا أعرف

أرادت مها فتح الخط والرد، جذب الهاتف من يدها بسرعة، ووضعه بعيدا.

- لا تريدني أن أعرف من التي تتصل بك؟

- يا حبيبتي لا أحد يعرف أننا معا الآن، ولا نعرف من يتصل على هاتفي، لو تركتك تردين على المكالمة، فهذا يعني أنني وأنت في مكان واحد في هذه الساعة من الصباح، يعني فضيحة يا عمري.

أدركت مها حجم الخطأ وطبيعة الكارثة التي من السهل أن تقع بسبب خطأ بسيط كهذا، أخرجت هاتفها وقامت بحفظ الرقم من هاتف كامل لتلفونها وأسمته، المجهولة.

في المساء اتصلت عالية بكامل من رقمها المسجل لديه، كانت تبكي وتبدو في حالة انهيار وهزيمة وحزن.

هدأ من صدمتها وكلمها برفق، وأقنعها أن تفسر له سبب البكاء والحزن.

فهم أن مها اتصلت من رقم هاتفها واستدرجتها في الكلام، ولما عرفت من هي شتمتها وأهانتها وحذرتها أن كامل ملك لها وحدها، وأنها إذا حاولت الاقتراب منه ستنسفها من فوق الأرض.

وهكذا مهدت الحرب الصغيرة الطريق، لعالية وكامل أن يذهبا بعيدا عن قيود مها وغضبها وتهديدها.

سافرت مها إلى الإسماعيلية لقضاء الصيف في بيت جدها لأبيها، ولم يتردد كامل أن يطلب من عالية أن تمر به بحجة استلام الكروت.

عندما جاءت كان هو في العمل، وكان أخوه وأصدقاؤه يعرفون عالية وتطبع لهم كروت وبطاقات أفراح منذ عام ونصف، لكن كامل كان في عالمه الخاص، فهو يبدأ العمل مع الغروب حتى الفجر، وينام نهارا، أو يعشق مها.

سألتهم عن كامل، شهق الأصدقاء الأربعة وأخوه وقالوا في وقت واحد: ابتعدي عنه، أنت مجنونة، هذا شخص خطير جدا.

ولأنها كانت تثق جدا في صبري ولم تكن تعرف أنه الأخ الوحيد لكامل، فقد أخبرها بالأمر وحذرها من أخيه لأنه يسقط الفتيات في غرامه ويسحرهن، وألا يخدعها وجهه العادي الأسمر البسيط الذي لا يبدو وسيما ولا جذابا ولا ملفتا، لكن الحقيقة أن هذا الشاب أسقط الكثيرات، وحذرها وكرر التحذير: ابتعدي عنه.

- أين هو، هاتفه غير متاح؟

- يا للمصيبة قال عصام صديق صبري، أخذت الرقم؟ !

- وما المشكلة في ذلك، هذا أكل عيشي وطبعت له ألف كارت.

- سيكون هنا خلال ربع ساعة، هو في بيت قريب من هنا، لن يتأخر.

وطلبوا لها عناب وأحضروا كرسيا وجلست، لكنها سبحت في نهر خيالها وتمنت الآن وحالا أن ترمي نفسها بين ذراعي هذا الشخص

الخطير الذي حذرها منه الجميع، وأصرت بقوة أن تكسر كل الحواجز بينها وبينه بسرعة وجرأة وجنون.

عاد كامل، وجد الأصدقاء في ورشة أخيه، وعالية جالسة، حياها بوقار وأدب، يحاول خداع الأصدقاء، لكن كانت نظرات أعينهم قلقة ومرتعبة مما قد يحدث بين كامل وعالية.

سألها كامل بجدية: هل أنهيت الكروت؟ وهكذا سحبها من بينهم ووقف ليتحدث معها قليلا أمام الورشة، ثم تحرك ببطء وهي معه، انعطف إلى الشارع المغلق، وجلسا معا داخل المحل.

بين لحظة وأخرى تدوي صيحات جماعية هائلة، ارتعبت عالية واستفسرت، قال لها: الأهلي والزمالك، وهيأ نفسه لاغتنام الفرصة.

أظهر إعجابه الشديد بالطباعة والإخراج والإتقان، رغم أنه لم يستخدم هذه الكروت إطلاقا، ومن الثناء على الشغل المتقن، أخبرها أنه لم يرى في حياته فتاة بهذا التناسق والتناغم، أخذ يمتدح جمال عينيها ورقة أنفها وشفتيها المرسومتين، وخديها المنحوتين برقة، ورقبتها الموزة، وتناسق بدنها، وتميز طولها، وروعة قوامها، وكانت الفتاة تستمع وتذوب كقطعة ثلج صغيرة تتلاشى وتسيل ببطء.

لمعت عيناها الواسعتان وتنهدت مرات عديدة، سألته عن الفتاة الضخمة وأمها وعلاقته بها، وتذكرت تهديداتها وشتائمها وبكت،

جذب كامل كرسيه وقربه من مقعدها، واساها بحنان، مسح رأسها بيده، فأسقطت نفسها بين ذراعيه، وكانت قبلتهما الأولى، حالة اغماء طفيف ضربتها ، فقد مضت دقائق طويلة .

الحب غلاب والقلب قلاب، كامل وعالية يغرقان ويغوصان لقاع الحب، ومها خدعها أبوها وأبعدها عن كامل بحجة المصيف وباع الشقة الجديدة، وعند وصول العفش والموبيليا إلى الإسماعيلية فهمت مها المكيدة، وتحول الغرام المستعر إلى مكالمات متباعدة، ووجدت مها وسيما آخر ووجد كامل عالية، والحياة لا تصون عهودا لأحد.

ظن كامل في نفسه أن كل الفتيات مثل مها، وكانت كلمات صفوت صديقه وزميله في عشق مها، تحول أفكاره إلى وساوس وأحلامه إلى كوابيس.

ولأن عالية سقطت بقوة في العشق، فقد سمحت لكامل أن يستحوذ على عقلها وقلبها، واعتبر هو هذه التنازلات مؤشرا خطيرا وفألا سيئا.

وكان يقول لنفسه: ندخل في تجربة لنرى، وكان عليه أن يجرب حبه الجديد.

كانت دهشته كبيرة، قال لنفسه وهو في حالة ذهول: هذه بلورة من نور، لوحة من فضة، هذا مسك مختوم، هذه الأرض لم تعبرها قدم،

ولم تحرثها يد، وفرح كامل أنه وجد زوجته المستقبلية وتمسك بهذا الحلم بكل قوة، لكن فواتير الماضي لم تسدد بعد.

انكمش عمله يوما بعد يوم، الكابلات تنتشر في الشوارع لتوصيل خدمة المشاهدة للتليفزيونات بدون طبق استقبال ولا جهاز استقبال، تحول إلى عاطل دون أن يدرك ذلك، فبعد أن كان لديه عشرون موعدا كل شهر، صار يمر الشهر والثلاثة دون أن يعمل بقرش، ظل يستنفذ رصيده بشكل مستمر ومنتظم، حتى أفلس.

فكر في عمل جديد ينقذ الموقف، لكنه تأخر جدا، فلم يعد يملك مالا لبداية جديدة.

رغم هذا الانقلاب الكبير، لم تتغير عالية معه، ولم ينقص حبها له بل كان يزيد ويتوهج ويكبر ويتوحش حتى وصل حد الهوس والعشق المحموم.

عامان كاملان مرا منذ التقى كامل بعالية، وكل يوم جديد يكبر حبهما وينمو، قرر أن يغامر وهو في أزمته الطاحنة، أخبر أسرته وأبلغ عالية وأسرتها وسافر ليتعرف على عائلته الجديدة.

أحب كامل عائلة عالية الطيبة الكريمة، وهم أحبوه، كانت أكبر مشكلة هي الشقة، فهو ينتظر أن تنتقل ابنة عمه لشقة أخرى، وتترك شقتها له، لأنها تقع ضمن نصيب أبيه في الميراث.

أخبر أسرة الفتاة بكل شيء بدون كذب، فهو يكره الكذب لأنه يخدع صاحبه ويجعله يدفع ثمنا كبيرا خاصة عندما يخترع الكذبة ثم يصدقها ويعيش بها.

لقد دخل من الباب، أصبحت عالية خطيبته بشكل ما، انتظمت اللقاءات بينهما، لكنها كانت لقاءات خطيب وخطيبة، ولم تتجاوز الخط الأحمر، فقد كان يخاف عليها ويحفظها من نفسه، ذات يوم أكد لها أنه يستطيع حفظ عرضها حتى لو باتا معا في فراش واحد.

ودارت أيام غرامهما وعرفت عالية صدقه وخوفه عليها على حساب أعصابه المحترقة وأعصابها البركانية التي تتفجر.

مر العام الأول والثاني ولم تقم ابنة عمه بإخلاء الشقة، كان الأمر عنادا وتحديا أكثر من كونه صعبا لشراء شقة أخرى.

وفي العام الثالث جاء عريس جاهز كان مغتربا في السعودية، بنى عمارة شاهقة، وأحضر شبكة نصف كيلو ذهب، واستسلمت عالية وتزوجت كما يتزوج الناس منذ خلق آدم، بلا حب ولا عشق ولا هلوسات طائشة.

وفي فراش عرسها أخطأت في اسم زوجها مرة بعد مرة ونادته يا كامل!

وفي الأسبوع الثاني عادت لبيت أبيها، بعد ضرب وإهانات وهوان وقسوة حماتها وأخت زوجها عليها، كان الثلاثة يحطمونها

ويدمرون أعصابها، وملأ الشك قلب زوجها حتى توهم أنها لم تكن عذراء، وأن دماء العرس ملفقة!

بقيت في بيت أبيها حتى ولدت طفلا، وتم الطلاق في المحكمة بعد صراع مرير.

أول نسمة هواء تستنشق عالية عبقها بعد التجربة القاسية، كانت في ظل حبيب القلب والروح والعين، عادت بجسدها لبيت أهلها بعد أن ودعته وانصرفت، لكنها تركت روحها هناك في صدر كامل، وأصبح هو أيضا يعيش حتى اللحظة بروح عالية.

المتحرش

طاردها في كل مكان، في الفناء، في غرفة المدرسين في الطرقة، تطفل وطرق باب فصلها بحجج متعددة، كالحصول على أصبع طباشير أو قلم كحول، تحرش بها بكل الطرق، يهمس لها بكلمات نابية حينما تمر أمامه أو عندما تلتقي به في أي ركن من أركان المدرسة.

هي مدرسة لغة فرنسية حسناء جدا، ترتدي الجينز الضيق والبلوزات التي تكشف تفاصيل الجمال الفاتن، خصرها الضيق وحوضها الوسيع، وظهر جنيفر لوبيز، لم يمر على وجودها في المدرسة أكثر من شهر، خرجت من عسل الزفاف للعمل، زوجها شاب طويل قوي وبلطجي تائب، قاوم السرقة والسطو وتعلم بعض المهارات من كتب السحر، وأصبح معروفا ويجيء إليه الزبائن من البلاد المجاورة، وكثرت الجنيهات بين يديه.

زوجته الحسناء الفاتنة عاشت عشرين عاما تصارع شياطين لا تراها، حولوا حياتها لعذاب دائم، مشاكل وخناق واكتئاب وسوء حظ وفشل في كل مناحي الحياة، فتحت بوتيك ملابس فالتهمته النار

بسبب ماس كهربائي، فتحت محل هواتف محمولة وكروت شحن سرقه اللصوص وتركوه على البلاط، فتحت محل آيس كريم تسممت مجموعة أطفال وخرجت من القضية بأعجوبة بعد حبسها أربعة أيام، وفي القسم رآها شامخ البطل وسحرها بثقته الجبارة في نفسه وقدرته على حل أي مشكلة في العالم وكان شامخ وعدها بتخليصها من القضية، وأخذ منها خمسين ألف جنيه، وأقنع كل أسرة بأخذ عشرة آلاف جنيه مقابل تلقين الأولاد أنهم أكلوا تورتة مزينة بالفاكهة وجدها زميلهم كاملة بعلبتها مغلفة ومزينة بشرائط اللف في مقلب قمامة جوار المدرسة ولم يخبرهم أين وجدها وأوهمهم أنها تورتة عيد ميلاده وأكلوها معا.

عندما خرجت شهد من القضية فاجأها شامخ أنه يرى على جسدها هالات لعفاريت ومردة عتاة، وأنهم يدمرون حياتها ويحدثون لها المشاكل وصدقته فورا.

صنع لها حجابا ورقاها وسقاها عشرات الورقات المذوبة في ماء عطر بماء الورد والطلاسم، وتعلقت به عندما تحسنت نفسيا وبدنيا ولم تتردد في الزواج منه، فتاة غنية ويتيمة وليس لها أحد يرعاها سوى خالها، وتعيش بمفردها في شقتها.

أخفت العروس الجديدة عن عريسها، مشكلة حياتها الجديدة، زميلها طاهر يطاردها في كل مكان ويعض لها على شفتيه ويتغامز، ويطيل النظر إليها خاصة لنصفها الأسفل، وذات يوم وتحت غطاء

مطر ديسمبر ومع انتهاء اليوم الدراسي واندفاع التلاميذ والمدرسين لمغادرة المدرسة، وبينما ترفع شهد مظلتها فوق رأسها وتتمهل لخروج حشود التلاميذ من البوابة، اقترب طاهر ولمسها من الخلف بجسمه كله، ثم نظر إليها نظرة ماجنة معتذرا أنه تعثر.

كانت نفسه تحدثه أنها مفتونة به وأنها تريده وترغبه فهو وسيم وأنيق وميسور وابن ناس ولابد أنه أفضل من زوجها البلطجي التائب، وأنها تتدلل عليه لكنها ستنهار قريبا.

في اليوم التالي مباشرة وفي اللقاء الأول في طابور الصباح اقتربت منه وقالت بصوت منخفض: - تبدو جميلا اليوم أكثر من أي يوم!

جن جنون طاهر وتهلل وجهه فرحا وغرورا وكاد يرقص في الفناء، وفي منتصف اليوم أعطته رقم الهاتف والعنوان وقالت سأنتظرك في الثامنة مساء، وطمأنته أن زوجها في سفر للأقصر.

كانت شهد قد أخبرت شامخ، فطلب منها طلبا عجيبا لم تفهمه أبدا. قال لها أريد صورا له، صورة للوجه، وصورة كاملة من الأمام والخلف، وظنت شهد أن شامخ زوجها سيسحر طاهر. وعندما أخبرته أنه التصق بظهرها قال لها أعطيه التلفون والعنوان والموعد وفي الصباح ابتسمي بدلال في وجهه وأسمعيه هذه الكلمات، سأختبئ في الشرفة عندما يرن الجرس، سيكون خائفا ومرتجفا، سيطلب الدخول للحمام، ليطمئن أنه لا أحد يكمن له، ثم يطلب ماء باردا وعندها ستذهبين لثلاجة المطبخ وسيطمئن أكثر، ستصحبينه

في جولة خلال الشقة، أدخليه غرفة الأطفال، وافتحي الدولاب الصغير وقولي له أتمنى أن أملأه بملابس جميلة لطفلة حلوة سأسميها شهرزاد، ثم أدخليه إلى الصالون وأخبريه أنه من أفخم أنواع الأثاث، وأن ثمنه مئة ألف جنيه، سيذهب قلقه لدرجة جيدة، استدرجيه عندئذ لغرفة النوم، ستقع عيناه أسفل السرير، سيلاحظ أنه مغلق من كل الجهات وليس مفتوحا كالأسرة القديمة، اذهبي ناحية الدولاب وافتحي الدرفتين وأريه ثيابك، اسأليه عن أحب الألوان إليه، ثم افتحي الدرفتين الأخريين، وأخرجي بيجامتي البيضاء التي اشتريتها لي ولم ألبسها بعد، أخبريه أنك قمت بشرائها لأجله، واطلبي منه أن يرتديها لأنكما ستبقيان معا لبعد الغداء، عندما يتأكد أنه لا أحد سواك في الشقة سيتجرأ ويتحرر وتعود الدماء إلى عروقه. أخبريه أن عشقك له كاد يقتلك وأنك لم تكوني تحتملين الصبر أكثر، سيخبرك عن حبه لك وأنه لا ينام بسببك، ذوبيه، قولي له دعنا نلعب، أريد تقييدك لأستمتع بك، سيضحك بغرور، أمسكي إيشاربا صغيرا قيدي يديه خلف ظهره، سيرتخي، اسحبي القيود الحديدية برفق من جيب الروب، قيديه، سيسألك ماذا تفعلين؟ أخبريه أنك سترقصين له وتريدينه أن يستمتع برقصك دون أن يقطع عليك بهجتك لأنك تعشقين الرقص وأن زوجك لا يسمح لك بهذه الأمور، قيدي قدميه، ارفعي صوت التلفزيون.

- هل فهمت ماذا ستفعلين؟

- فهمت لكن أخاف أن يهاجمني قبل كل ذلك، ولا تعجبني هذه الأفكار الشيطانية، هذا تصرف غير سوي.

- نظر إليها بعينيه الإبليسيتين وقال بحدة : لا تجادليني، سأكون هنا في الشرفة ولن يحدث إلا ما خططت له.

في التاسعة من مساء تلك الليلة كانت شهد تقوم بتسجيل فيديو بهاتفها في غرفة نومها وهي لا تصدق أن شامخ أرغمها على ذلك وهددها أن يذبحها لو ارتعشت أو تلكأت في التنفيذ.

كانت آهات طاهر ترتفع وشهد تضبط الكادر كي لا يظهر وجه زوجها . لم يرحم توسلات طاهر المتكررة وصرخات الألم تتصاعد وهو مقيد اليدين وراء ظهره منكفئا على وجهه في فراش الزوجية وسكين كبير على الملاءة الوردية أمام عينيه.

أيام محسن علام

رأت أم سعيد حزنا يلمع في عيني زوجها أثناء تناولهم للغداء، لكنها كتمت سؤالها حتى ينهى الأولاد طعامهم.

انتهت من غسيل الأطباق، بعد أن حفظت بواقي الغداء، أنصاف أرغفة، وقطع لفت، وأقراص فلافل وبصل لم يكسر، وتقول لنفسها : "كل لقمة فقيرة هي نعمة كبيرة يعجز كثيرون في العالم عن الحصول عليها، بل ويبحثون عن طعامهم في أكوام القمامة".

أعدت كوبين من الشاي لها ولزوجها، كان زوجها محسن قد خرج إلى الشرفة، لم يكن في بيته مقاعد وثيرة ولا صالون ولا حتى كراسي سفرة، رغم عمله كنجار كراسي.

كراسي بيت محسن كانت أقفاصا من جريد النخل، التي يستخدمها تجار الخضروات في نقل بضائعهم من خلالها، اشترى ستة أقفاص وصفها في أركان البيت الصغير مقلوبة على أفواهها وفوقها قطع قماش غليظ يشبه السجاد الرديء.

قالت أم سعيد بصوت حان: الشاي يا أبا سعيد.

تناول منها الكوب الزجاجي المفلطح من أعلاه، رشف رشفة بصوت مسموع، رغم حرارة الشاي كما تعود طوال عمره.

سألته برفق: ما بك يا حبة عيني، كفى الله الشر؟

نظر إليها بعينين كسيرتين وقال: تتسع الدنيا على خلق الله لكنها ضيقة علينا، حتى يوم الجمعة بدلا من أن يأكل أولادي بطة أو دجاجا أو لحما، يأكلون فول وفلافل! ودمعت عيناه.

ربتت على ظهره وواسته قائلة: ما ضاقت إلا وفرجت.

تنهد وأشار بأصبعه إلى الشارع. كانت عربات الفاكهة والخضار تصطف على جانبي الطريق المرصوف حديثا بالأسفلت.

الباعة يرفعون أصواتهم بالنداء على بضائعهم.

أحلى من الشكولاتة يا موز،

عمرك عدا وراح يا اللي ما اكلت التفاح.

الناس يتوافدون بشكل مستمر للشراء منذ انتهاء صلاة الجمعة، حتى اقترب العصر.

قال لها وهي تنظر حيث أشار: أغرق الله الناس في نعمته، عربة الموز هذه كانت مثل تلة كبيرة عندما خرجنا من الجامع، انظري لم يبق منها سوى نصف سباطة.

قالت لتواسيه: فرجه قريب يا سندي، سلم أمرك لله، صحتك تساوي الدنيا.

رشف رشفة أخرى من الشاي وقال: يعودون إلى أولادهم بأكياس مملوءة تفاحا وموزا وبرتقالا وتينا وخوخا، بينما لا يأكل أولادي الفاكهة إلا صدفة، وإذا استطعت الشراء أحضر لهم صنفا واحدا، لم يأكل أولادي تفاحا منذ شهور يا ثريا.

همس لنفسه: لماذا نحن فقراء، ورفع وجهه للسماء الصافية، حدق النظر ثم انهمرت دموعه.

كانت أول مرة ترى أم سعيد زوجها وهو يبكي منذ زواجهما، عشرون عاما ونصف مضت كالحلم أياما، وكالكابوس سنينا.

تجاوز محسن الخامسة والأربعين، قصير القامة ومكتنز البدن، ومع صلعته اللامعة بدا أنه ازداد قصرا، وكأن الأحزان تدكه في الأرض شبرا إضافيا كل عام.

قالت برقة: استغفر ربك ، ليس هناك من هو أحن منه علينا.

مسح عينيه بأصبعين وتنهد قائلا: أستغفر الله العظيم.

منذ سنوات زواجه لم يترك محسن علام صلاة جماعة تفوته، الجامع على مقربة من البيت، ورثه هو وإخوته عن أبيه، وعندما جاءته الفرصة للسفر إلى العراق للعمل بعد زواجه بسنة، اضطر للاقتراض.

طلب من أخيه ثلاثمائة جنيه، فرفض أن يعطيه، ذهب لأخته فقالت له، سأعطي المبلغ لأخيك وأنت تتعهد بسداده له، فهو مبلغ كبير.

وعندما عاد مرة أخرى ليطلب المبلغ من أخيه الأكبر، جعله يوقع على إيصالات أمانة، بحجة حفظ حق أخته، لتسترد مالها عندما تطالب به.

فبصم ووقع الأوراق كالأعمى.

وعندما عاد من العراق بعد ستة أشهر، دون أن يحقق نجاحا كما فعل أصدقاؤه وأقرباؤه في العراق، اكتشف أن ملكية البيت آلت لأخيه، وأنه سدد لأخته الثلاثمائة جنيه بالإضافة لباقي حصتها من الميراث.

ولما استفسر محسن من أخيه عن نصيبه في الميراث، أفهمه أنه اشترى نصيب أختيه، وأن محسن قد استلم جزء من حقه في الميراث بحصوله على ثلاثمائة جنيه، بالإضافة للمبالغ التي أنفقها أخوه على زوجته وطفله أثناء سفره، والمال الذي أقرضه إياه لتجهيز الورشة وشراء أدوات النجارة والأخشاب لبدء عمل جديد

بعد فشله في العراق، وأصبح المبلغ الباقي لمحسن لا يتجاوز ستمائة جنيه، ثم صرف حاتم وجهه كي لا ينظر في عيني أخيه وأوضح له أنه يملك مبايعات موقعة من الجميع.

فأدرك محسن أنه وقع ورقة بيع نصيبه من الميراث، عندما وقع إيصالات الأمانة، يوم أخذ المال، وأن أخاه الوحيد والذي أسمى ابنه على اسمه، قد خدعه وسلبه حقه بطريقة شيطانية.

لم يصدق محسن نفسه أنه بسبب مغامرة السفر وقلة المال في يده تحول من مالك وارث لمجرد مؤجر ضيف، فقد قال له أخوه صراحة: أنت مجرد ساكن مؤجر في بيتي!

وشهر بعد شهر، سحب محسن من أخيه مائة بعد مائة، وضاع إرثه للأبد.

كان محسن يترك العمل لحظة النداء الأول للصلاة ويهرول إلى الجامع، دون إبطاء، ويصلي في الصف الأول جوار النافذة، حتى أصبح المصلون يتركون هذه البقعة من الصف باعتبارها مكان محسن الخاص للصلاة.

أعطى زوجته كوب الشاي الفارغ قائلا: سلمت يداك يا ثريا.

نظر في ساعة يده وأدرك أن العصر سيؤذن له بعد خمس دقائق، توضأ بسرعة كعادته في كل تصرفاته، حركته حاسمة سريعة قوية

رجولية، فمنذ كان في العاشرة وضع أبوه على عاتقه مسؤوليات رجل.

فكان يروي الأرض ويسقي الجواميس ويحلب لبنها ويحرث الأرض بالمحراث البدائي الذي تجره جاموستان، أيام كان فلاحا مع أبيه.

طفولته غارقة في الحكايات والمآسي، جنية البحر خرجت إلى شاطئ النيل ونادت على أبيه باسمه: يا علام يا ابن سكينة!

لكنه فزع عندما رآها وترك الفأس وانطلق كالسهم، ولما أخبر الناس قالوا له هذه أوهام في رأسك، وكثرة استماعك لحكايات جنية البحر، جعلتك تتخيل أنها نادتك وأنك رأيتها.

الشيخ عرفان قال له: الإنسان لا يمكنه رؤية الجان.

أمه سكينة هي الوحيدة التي صدقته وامتلأ قلبها خوفا عليه.

في ليلة أخرى مقمرة، نادته الجنية الحسناء ذات الشعر الذهبي المضفور كأنه ثعابين تتلوى، ولما فر هاربا منها، بصقت بصقة قوية طارت في الهواء وأصابت علام في منتصف ظهره، فسقط قرب الساقية، ظل شهرا يخرج من الحمى ليدخل في حمى جديدة، ولم يقم من سريره بعدها، وأمضى أعوامه الأخيرة مشلولا.

بعد رحيل علام باعت أم محسن الأرض التي تسكن شاطئها جنية البصاق، واكتفت ببيع لبن الجاموستين.

خرج محسن من البيت متوضأ وصلى ركعتين سنة قبل العصر، وجلس ينتظر إقامة الصلاة.

أنهى الشيخ زكريا الصلاة، وكعادة محسن وقف للخروج من المسجد مسرعا، لكن الشيخ ناداه.

-اجلس يا حاج محسن لسماع الدرس فاليوم إجازة وابتسم.

جلس أسفل النافذة واستند بظهره للحائط، وطافت الكعبة أمام عينيه، حلم قديم يراوده لم يحققه بعد، زيارة البيت الحرام، والسعي والطواف والشبع من ماء زمزم، وتلألأ الدمع في عينيه.

قال الشيخ: الحمد لله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. الحمد لله فالق الحب والنوى. الحمد لله الذي جعل بعد عسر يسرا. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى أله وذريته وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

كان محسن شاردا مستغرقا في همه وحلمه، ضيق عيشه، معاناته، الكراسي الستة التي يصنعها كل أسبوع ولا توفر له حياة الرخاء التي يتمناها لأولاده وزوجته.

رفع الشيخ صوته عاليا: اذكروا الله.

فردد الموجودون رغم قلتهم نداء التوحيد.

أضاف الشيخ: صلوا على الحبيب.

فصلى الناس وسلموا.

عندها عاد محسن من تطوافه في الأحلام والآلام للمسجد، ذكر الله وصلى وسلم.

كان الشيخ زكريا يرتل.

(وقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا*يرسل السماء عليكم مدرارا*ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا)

فتح محسن فمه واتسعت عيناه وانتبه بكل كيانه، أخذته رعدة قوية هزت وجدانه، جمع شتات روحه المبعثرة، كأن الآيات التي سمعها لتوه جبل عظيم يغلق عليه طريق الحياة ليفتح له طريقا جديدا.

محسن ترك المدرسة مرغما في الصف الثالث الابتدائي، هم فقراء وأخوه الأكبر كان متراخيا ولا يعتمد عليه، اضطر محسن لمساعدة أبيه في زراعة قيراطين من الأرض، ثم أمه في بيع اللبن، كي يستطيع أن يأكل هو وإخوته، رغم تسربه من التعليم، كان يمكنه قراءة رسالة و كتابتها، رغم ضعفه تجاه اللغة، لكن بالنسبة للحساب فقد كان ذهنه أكثر سعة للطرح والجمع والقسمة.

أنهى الشيخ الدرس وانصرف الناس، لكن محسن لم ينصرف، زحف على ركبتيه ويديه حتى جلس بين يدي الشيخ وسأله متلهفا:

هل صحيح يا شيخ زكريا ما قلته منذ قليل؟

هل يجعل الله لعباده جنات وأنهارا في الدنيا أم في الآخرة؟

ابتسم الشيخ وقال: في الدنيا والآخرة يا حاج محسن، من التزم و اتقى الله، جعل له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا.

ألم تسمع قوله (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب)

وهو يقول أيضا (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى)

تلجلج لسان محسن وقال يا شيخ: يعني ذلك أنني إذا التزمت سيغنيني الله من فضله؟

قال الشيخ: يا عم محسن، لا يجب على الله شيء، وهو لا يسأل عما يفعل، يعطي من يشاء ويمنع نعمته عمن يشاء.

شعر محسن فجأة بيأس كبير وتبخر الأمل من قلبه سريعا، لكن الشيخ زكريا وضع يده على كتفه وقال له: الزم تقوى الله، أحب الخير للناس، لا تحسد أحدا، لا تحقد على أحد، ساعد الناس ما استطعت، تصدق عندما تتسع الدنيا عليك، طهر مالك بالزكاة،

وأفرغ قلبك من الكراهية وسلم لله أمورك كلها، وسترى كرم الله عليك.

خرج محسن من الجامع فالتصق الشيطان به، وضع فمه على أذنه وقال له: أيعقل أن يكون كلام الشيخ صحيحا؟

إنه فقير مثلك، فقير جدا، رغم أنه يصلي إماما بكم ويعلمكم منذ عشرين سنة، الأعجب أنه أدى العمرة طلبا للذرية من الله، لكن لم يرزقه الله أطفالا ولا أوسع عليه رزقه، أيعقل أن يستجيب الله لك وشيخكم نفسه في حزن مقيم!

تعثر أثناء ارتداء حذائه وتحرك لينزل فخرجت قدمه اليسرى من الحذاء وقد مال جسده للأسفل، وفي لحظة اختل توازنه فاستند على الحائط ثم سقط على سلم الجامع لعدة درجات واستقر جسده على باسطة السلم، تأوه، لقد كاد أن ينكسر ذراعه، سمع صوتا بداخل رأسه يقول: انشغل بنفسك ولا تنشغل بالناس، ولا تحاول أن تفهم كيف يدبر الله ملكوته.

استند على الحائط وقام بعدما ساعده مصليان مسنان، وقالوا له: الحمد لله على سلامتك، انتبه لنفسك يا محسن.

اتجه إلى البيت واستغفر الله على أفكاره السيئة تجاه الشيخ الطيب، وأحس أن سقطته رسالة واضحة جدا، فظل يستغفر حتى وصل البيت.

قال لزوجته: اصنعي لي شاي ثم خرج للشرفة.

ما أن جلس حتى لمعت أمام عينيه مسبحة أبيه، انتفض واقفا وتوجه إلى المطبخ، أين مسبحة أبي الكهرمان يا ثريا؟

اندفعت بسرعة إلى غرفتها، فتحت الدولاب، جذبتها وذهبت بها إليه.

- ها هي.

ثريا امرأة حنونة طيبة، قصيرة وسمراء وفقيرة الجمال، كانت تحب محسن منذ الطفولة، هو ابن خالها، ولم تكن تعي وهي طفلة أنها تريده زوجا في المستقبل، وعندما خطبها خالها لابنه محسن، غمرت قلبها أفراح ومشاعر دافئة لم تبرد مع مرور السنوات.

تطيعه ولا تناقشه أبدا، لا تزعجه بطلبات منزلية ثقيلة، لا ترهقه بكلمات قاسية تكسر الظهر، لا تشعره بتقصير أو حرمان يغشى حياتهما معا.

تزوجته وهو فقير لا يملك شيئا، راضية بنصيبها من الحياة والحب والفرحة، واحتملت معه الأسى واقتسمت معه لحظات السعادة القليلة، واعتبرته حياتها الكاملة، الأب والأم والصديق والزوج.

طباعه الحادة وقلة كلماته وصرامته وحرصه الذي يبدو بخلا مقيتا، وعصبية مزاجه أغلب الأحيان، تعايشت معها ثريا برضا وتسليم.

كانت ثريا تبدو للأقرباء والجيران امرأة ضعيفة كسيرة الجناح، طائعة مستسلمة وخاضعة وبلا شخصية، لكن الحقيقة، كانت ثريا الضلع الناقص لمحسن، وسر قوته الخفي، وجيشه الوحيد، كما يقال في الأمثال.

أخذ المسبحة منها وأمسكها بين يديه، تشممها وقبلها، ما تزال عبقة برائحة المسك الأبيض رغم مرور السنين، ترحم على أبيه وأمه وعاد إلى الشرفة.

أدار المسبحة بأصابع يده اليمنى وبدأ يهمس، سبحان الله.

تذكر الآمال والأمنيات التي في قلبه، وكلمات الشيخ، بدأ يستغرق في التسبيح : يا رب لقد سامحت كل من أساء إلي، سامحت أخي الذي أكل ميراثي واستغل ضائقتي، سامحتهم كلهم يا رب. أستغفرك وأتوب إليك، أستغفر الله العظيم.

جاءت أم سعيد بالشاي، كان قد أدار حبات المسبحة مرات ومرات، نقل المسبحة ليده اليسرى وظل يستغفر وهو يشرب الشاي.

استغرق في التسبيح حتى نسى نفسه، جذب قفصا آخرا ومد ساقيه، وارتكن بظهره للحائط على القفص الذي يجلس فوقه، ركن خده على الحائط والمسبحة في حجره وغفى.

رأى أباه في الغفوة التي أخذته، يرتدي جلبابه الوحيد بلون ثمر النبق، يداه وقدماه نظيفتان رغم وقوفه وسط الأرض المزروعة

قمحا، مد أبوه يده للأرض وانتزع عدة عيدان قمح بها سنبلات ناضجة وفيرة الحب، أعطاها لمحسن وهو يشير إلى طريق ترابي لم يكن محسن يسلكه للعودة إلى البيت.

دخلت ثريا الشرفة فرأته نائما، فمست ركبته برفق قائلة: قم يا أملي لتنام في سريرك.

أفاق، نظر إليها وفي وجهه فرحة، ابتسم، ثم نهض وتوجه للحمام، توضأ لصلاة المغرب وتوجه للمسجد، بينما يرفع المؤذن صوته: الله أكبر.

قال لنفسه وهو يسير: لقد استرد أبي عافيته وشفاه الله من الشلل، وأحس بفرحة كبيرة تغمره، لقد نسي في لحظة سعادة أن أباه مات، أحس به حيا يشاركه لحظات حزنه وفرحه، ترحم عليه، ودخل المسجد فأشار بيده بالتحية مبتسما للمصلين العجائز، يجلسون على الكراسي في نهاية المسجد، ويصلون قعودا.

قال عم مؤنس لرفيقه هامسا: على غير العادة يلقي التحية مبتسما!

قال ابراهيم الطرزي: أصلح الله حاله وحالنا.

صلى محسن ركعتين قبل الإقامة، وبعد صلاة الجماعة صلى ركعتين، كان الاستغراب باديا على وجوه المصلين، هناك شيء جديد في محسن علام، شيء لا يرى بالعين.

أسند ظهره للحائط وظل يسبح، ومن التسبيح انتقل للاستغفار، لم يعرف عدد المرات التي دارت فيها المسبحة حتى حضرت صلاة العشاء.

وبعدما انتهت صلاة الجماعة ولأول مرة في حياته، صلى ست ركعات، كل ركعتين في بقعة من المسجد، كان يرى المصلين المسنين المتعافين يفعلون ذلك، ولم يسأل أحدا ليعرف ماذا يفعلون.

ظل يسبح ويستغفر حتى أغلق المسجد أبوابه، وكالعادة يقف المصلون للسمر والنقاش أمام المسجد لأكثر من ساعة بعد إغلاقه، كأن الحنين يجذبهم للمكان وهو مغلق.

ليس من عاداته أن يقف بينهم ليستمع أو ليشاركهم الحديث، لكن كلمة الغفار التي تكررت أثارت فضوله.

كان الأستاذ عادل مدرس الرياضيات، يوضح لزميليه ومصليين آخرين، أن الأسماء لها أسرار، وأن كل اسم مرتبط برقم كوني، وأن الإنسان المؤمن إذا أحب اسما خاصا من الأسماء الحسنى لله، وعكف على التسبيح به، آلاف المرات كل ليلة، تناله بركة ذلك الاسم إذا كان قلبه نقيا عامرا بذكر الله.

عاد محسن للبيت، وهو يفكر في الكلمات التي سمعها دون أن يفهم منها شيئا، لكن عزم الأمر بداخله، أن يطيل التسبيح وذكر اسم الله الغفار.

تناول العشاء مع زوجته وأولاده ودخل حجرته.

اعتاد طوال عمره على النوم مبكرا والاستيقاظ مبكرا، خرج للشرفة لكن أزعجه البعوض بلدغاته المؤلمة، فعاد إلى الداخل.

المسبحة في يده، فمه مغلق، ويصدر عنه صوت كأزيز النحل ووصوصة العصافير.

اندهشت زوجته عندما وجدته يسند ظهره لشباك السرير وهو يستغفر، أفزعها المشهد، ظنت أن زوجها يستشعر اقتراب أجله، فأشعلت عدة عيدان من الذرة المجففة المأكولة، حتى صارت جمرا، ثم نثرت عليها بخور الجاوي ولبان الدكر، وأخذت ترقي زوجها وتبخره وهو يبتسم.

ما أن بلغت الساعة التاسعة، حتى كان البيت كله غارقا في النوم.

طوال السنوات الماضية اعتمد محسن على صوت ميكرفون المسجد القريب، لإيقاظه لصلاة الفجر.

لكن ما حدث الليلة كان مختلفا.

ففي الساعة الواحدة والنصف بعد انتصاف الليل، انتفض محسن من فراشه، لقد وكزه مخلوق ما بقوة، أمسكه من ذراعه الأيمن ثم دفعه بقوة فهزه فاستيقظ فزعا.

اعتدل وجلس في فراشه، نظر إلى نور الصالة المضاء عبر زجاج باب غرفته المغلق، التفت إلى زوجته الغارقة في النوم بجواره، دار بعينيه في العتمة الخافتة ونظر للسقف، كأنه يفتش عن ذلك المخلوق غير المرئي الذي وكزه بقوة، لكن لم ير أحدا، فعاد للنوم مرة أخرى.

لكن بمجرد أن تمدد في الفراش وجذب الملاءة على وسطه، وأغمض عينيه ونام على جانبه الأيمن واستعاذ من الشيطان الرجيم، وقرأ آية الكرسي، حتى ضربته وكزة أخرى قوية في بطن فخذه.

انتبه أنه لم يتألم، وأدرك أن هذه اللمسة الغريبة ليست هزة عضلية أو عصبية، شعر بفرحة ورضا بما أدركه عقله المحدود.

قام من فراشه وتوجه للحمام، نظر في الساعة فوجدها تقترب من الثانية، توضأ ونوى أن يصلى ركعتين.

بسط سجادة الصلاة على الأرض في صالة البيت، صلى ركعتين، ثم وجد قوة بداخله فصلى ركعتين، ثم صلى الخامسة والسادسة، وبينما هو ساجد، أخذ يدعو الله.

لم يكن يحفظ الأدعية الجميلة الملهمة التي يرددها الدعاة والعلماء في الراديو والتلفاز، ظل يسأل الله أن يغنيه من فضله، وأن يديم عليه عافيته ويبارك له في زوجته و أولاده ويعوض صبره خيرا.

بكى وبكى، أخذ ينوح وينشج ويهتز ويرتج كأن البيت كله يترنح تحت جبينه، حتى بللت دموعه موضع السجود.

جلس للتسبيح بعد التسليم، تذكر المسبحة، تسلل لغرفته بهدوء، سحبها من تحت الوسادة، وعاد إلى الصالة.

استند بظهره للحائط، ظل يسبح ويستغفر، تذكر الرقم الكوني، ظل يسبح قائلا: يا غفار، يا غفار، حتى سمع آذان الفجر، فخرج لصلاة الجماعة.

يوم السبت، جلس لتناول الغداء مع أسرته، كان أرزا وعدسا ولفتا مملحا، أخذ يقضم حبات اللفت ويشرب ماءه الزهري اللون، ويدفع ملعقته المملوءة عدسا بشهية وامتنان، كان ممتلأ رضا وسعادة، وشهيته الطيبة للطعام وحالة الرضا التي تغشاه انتقلت من نفسه إلى أنفس أولاده وزوجته فاستمتعوا بغدائهم كأنها مائدة ملك عامرة بأفضل الأطعمة.

تتغير الفصول ومحسن قائم على عاداته، صار يصلي أحد عشر ركعة كل ليلة ويسبح ويستغفر حتى الفجر.

تشجع على قيام الليل ممسكا بالمصحف، كانت السور الطويلة صعبة على لسانه، فاكتفى بقراءة الأجزاء الثلاثة الأخيرة من المصحف.

وذات ليلة بعدما حل الله عقدة لسانه في المصحف، وصار يقرأ بطلاقة، مع استعانته الدائمة بإذاعة القرآن الكريم، وبينما يقرأ سورة الزلزلة، تشمم المسك يفوح بقوة من المصحف، فخر ساجدا وبكى وكل شعرة فيه ترتجف.

العام الأول مر، لاحظ محسن أن الساعات القليلة التي ينامها بعد العشاء بساعتين، تمنحه راحة بدنية وطاقة غريبة في جسده كله، خفة ورشاقة وحيوية، صار جسمه أقل شحوما، حتى أنه لم يعد يبدو قصيرا مثل الماضي.

لم يعد مشغولا بفقره ورزقه المحدود، بل إنه لم ينتبه إلى الهدايا الربانية التي صارت تعرف طريقها إليه.

أشخاص لم يكونوا يتذكرونه أبدا إذا ذبحوا عجلا لأجل الله، صاروا يرسلون إليه، أقرباء من الدرجة الثالثة والرابعة، صارت هداياهم تأتيه في المواسم، وفي رمضان، و العيدين.

نوافذ كثيرة فتحها الله عليه، ولأنه نسي قنوطه القديم، صار يشتري لأولاده كل أنواع الفاكهة، وربت ثريا دجاجا وبطا فوق السطح، رغم اعتراض أخيه وكلماته الساخطة بسبب القذارة ورائحة الروث، كلما جاء من إسبانيا لقضاء إجازة السنة.

وعندما اكتشف ذات مساء عدة ورقات من فئة العشرين جنيها في درفة زوجته بدولاب غرفته، ذهل حين أخبرته أنها ادخرتها من بيع بيض الدجاج لدكان البقالة المجاور.

الكراسي الستة التي تنتجها ورشته، صارت ثلاثين كرسيا، والتاجر الوحيد الذي كان يبيع له منتجه الجيد، صار تجارا، وأصبحت الورشة تضم عاملين آخرين معه، دون أن ينتبه لهذه السعة التي تحيط بحياته والعناية الخفية.

كان يقلق لمجيء شهر رمضان، خوفا أن يتألم أولاده بسبب الحرمان والفقر، ولما أهلَّ الشهرُ الكريم في السنة التالية لحياته الجديدة، صنع منضدة لبيته بدلا من الطبلية، وأرسل ستة من الكراسي المنقوشة الغالية لصديقه الاستورجي لطلائها ثم لصديقه المنجد.

وكان أول إفطار رمضاني حول المنضدة العالية، عامرا بالتمر والكنافة والقطائف، وعصير القصب.

كان يعمل في نهار رمضان من الصباح حتى العصر، وبعد الإفطار من بعد صلاة التراويح حتى السحور، كعادة أغلب الورش التي انتشرت تحت كل بيت من بيوت المدينة.

يحزنه منظر الأراضي الزراعية التي تختفي يوما بعد يوم وتنبت مكانها بيوت من الطوب والخرسانة المسلحة، وكل يوم جديد تزداد

أعداد السيارات الجديدة التي يشتريها نجارون ومنجدون وعمال دهان وتجار موبيليا.

في ليلة من رمضان صلى بجواره رجل بهي الطلعة، له لحية كثيفة سوداء، وبعد انتهاء التراويح خرجا من المسجد معا، وسأله الرجل الذي بدت لكنته غريبة، عن كراسي سفرة بظهور منقوشة بالأويما، فقال له: أنا أصنعها.

رافقه محسن إلى الورشة وأراه الكراسي، فتفحصها الرجل وتحسسها وتأكد من إتقان صنعتها ومتانتها، وطلب منه شراء ستة ، وسأله عن ثمن الكرسي فأخبره محسن أنه يبيعه بعشرين جنيها، لكن لأنهما تعارفا في بيت الله سيخفض له السعر.

ابتسم الرجل وشكره قائلا جزاك الله خيرا، وأخبره أنه تاجر سعودي ولديه سيارات كبيرة تشحن الموبيليا من مدينة كفر سعد، وأخبره أنه سيحتاج عدة آلاف من هذا الكرسي، يتم شحنها على دفعات.

كاد قلب محسن أن يتوقف من الفرحة، وطلب من الرجل أن يبقى حتى موعد السحور لكنه اعتذر، فطلب محسن من ابنه سعيد أن يحضر بعضا من حلوى الكنافة والقطائف والتمر للضيف، ثم شربا الشاي، ودار بينهما حوار طيب، خاصة عن ذكريات محسن في حرب الاستنزاف و أكتوبر.

طلب التاجر السعودي من محسن أن يقرآ الفاتحة، وشرح له طريقة الشحن والتوصيل والمعاملة، ثم أعطاه ألفي جنيه عربونا، واتفقا على مواعيد التسليم، حيث يتم تحميل الأثاث في مدينة كفر سعد.

ما أن انصرف التاجر السعودي، صعد محسن لمنزله، وتوضأ وصلى لله ركعتين، وعندما رأت زوجته المبلغ فقدت وعيها، وكسر لها بصلة وأفاقت، بينما كان يضحك لأول مرة ضحكات من أعماق قلبه.

كان العمل يسير بسلاسة ويسر وجدية، وأصبحت الورشة تضم أربعة عمال، ثم اشترى محسن منشارا كهربائيا بالتقسيط، وبعدما أنهى الأقساط اشترى مساحا كهربائيا لتهيئة الأخشاب للصقها بالغراء.

بقي منزل أمه القديم الذي لا يتجاوز أربعين مترا كأثر عجيب من آثار عزبة اللحم، مر من أمامه الطريق الجديد، في نفس الخط الذي كان في الماضي مصرفا للماء العذب يشق غيطان عبد الجواد ودرويش وسليمان، وكان محسن يصنع سدين صغيرين في مسافة قصيرة من المصرف وينزح الماء بالدلو، ويصطاد القراميط من القاع الطيني.

فكر محسن في هدم البيت وبناء مستودع من الأخشاب، وجدها فرصة ممتازة، أخوه في إسبانيا، ويجيء مصر مرة كل عام، وإذا قام محسن بإرضاء أختيه، سيكون سهلا أن يعطي أخاه حصته في

بيت أمه الذي يشرف على واجهة الطريق، بينما بيت أبيه الذي يسكن فيه يقع خلفه مباشرة.

أعطى أختيه حقهما في ثمن قطعة الأرض الصغيرة، ثم هدم البيت وأنشأ مستودعا مرتفع السقف باستخدام أخشاب السويدي والبياض، ثم جعل سقف المستودع من الصاج الجيد، صنع له بابا واسعا، وعلق لافتة كبيرة مكتوب عليها، محسن علام للأنتيكات والصالون.

لجأ إلى حيلة ذكية، كان يشتري الموبيليا قطعة، قطعة، مرة يشتري شمعدانا خشبيا، مرة كنصولا، مرة شيزلونج، كرسيين أنيقين، وعندما أراد شراء طاقم صالون جيد، دفع ثمنه للنجار على دفعات حتى أكمل المبلغ ثم نقل الطاقم إلى مخزنه.

كل شهر يمر، يفتح محسن مخزنه ليلا ويتأمل في فرحة مقتنياته من الأثاث التي تتزايد يوما بعد يوم.

وعندما امتلأ المخزن بالأثاث ولم يعد محسن مدينا في قرش واحد من ثمنه لأحد، توكل على الله وافتتح المكان كمعرض لبيع الموبيليا.

ورغم شهرة شارع المعارض الرئيسي وسط المدينة المسمى شارع عبد الرحمن، أسس هو شارعا جديدا ناشئا باسم شارع محسن علام.

ثم قلده الناس المجاورون له وكثرت المعارض على امتداد الشارع.

لم يكن هناك شيء يزعج محسن أكثر من نقل الكراسي إلى مكان الشحن، ففكر في شراء سيارة ربع نقل موديل قديم تفي بالغرض، ووجد صديقه العربي سيارة مازدا بسعر مدهش فاشتراها محسن.

أتقن القيادة في شهرين واستخرج رخصة مرورية، واعتبر أن قيامه بنقل الكراسي لمنطقة الشحن نوعا من توفير النفقات وعملا نشيطا لأنه لم يعد يعمل كما في السابق، فالعمال وابناه أراحوه تماما من الشقاء القديم.

تراكمت الأموال في دولابه، صار يخشى عليها من اللصوص، كانت كلمة ربا ترعبه، ويكره البنوك بالفطرة، فاتخذ قرارا شجاعا بمشورة زوجته واشترى قطعة أرض ليبني عليها بيتا خاصا به، وخلال عدة أشهر بنى الجدار والطابق الأول.

ولأنه كان سليم السريرة، أخبر أخاه عندما عاد من سفره لقضاء إجازته السنوية، ولم ينتبه محسن لحالة الغضب والحسد في عيني أخيه عندما رأى المعرض مقاما على أرض بيت أمه القديم، وأصيب بذهول لما عرف أن محسن اشترى نصيب البنتين وأن المال الخاص بأخيه محفوظ لأجله، ولأن محسن مسالم صحبه يوم جمعة ليريه البيت الجديد، تأمل أخوه المكان وشعر بغيرة وحسد، وهداه شيطانه لفكرة تهدم هذا الأمل الوليد.

ففي اليوم التالي أخبره أخوه أنه لا يمانع أن يبيعه البيت الذي يسكن فيه محسن، وأن محسن يمكنه بيع البيت الجديد ويسترد بيت أبيه

خالصا له وحده، وشجعه على بيع البيت الجديد كدفعة أولى من ثمن البيت الذي يعيشون فيه الآن.

وأنه منذ هاجر إلى إسبانيا وتزوج وأنجب هناك لم يعد يرى ضرورة في الإبقاء على ملكيته للمنزل.

والأفضل لمحسن دمج البيت القديم مع بيت الأم في بناء واحد، بدلا من التشتت وإضاعة الوقت في التنقل بين البيت الجديد في قرية السنانية والمعرض الخشبي في عزبة اللحم.

فرح محسن ولم يصدق نفسه، وباع بيته الجديد، وعندما وضع المال أمام أخيه قال له: كنت أمازحك! من قال لك: أنني سأبيع بيتي؟

شعر محسن أن الدنيا أظلمت فجأة، حزن حزنا شديدا، ونام في الفراش مريضا، وعندما أجرى فحوصات وتحاليل اكتشف أنه أصبح مريضا بالسكري.

حزنه الكبير على نفسه جعله يتراخى ويتأخر عن صلاته، صارت الجماعة تفوته، أصبح يتكاسل عن صلاة الليل، والأدهى أضاع مسبحة أبيه ولا يعرف أين فقدها.

في الأسبوع التالي أثناء عودته من كفر سعد بعدما نقل شحنة من الكراسي، سرح ذهنه في موقف الخسة الذي فعله أخوه، ملأه الغضب والقنوط، واختلطت في عينيه الأنوار والظلال، انحرف بالسيارة عن الطريق وسقط في الترعة.

غاصت العجلات في الطين ومقدمة السيارة غمرها الوحل، تسرب الماء بسرعة حتى غطى فخذيه ووسطه، حاول فتح الباب لكن شيئا ما يمنعه من الانفتاح، ربما صخرة أو جزع شجرة كافور قديمة، كانت السيارة تغوص ببطء، بدأت تصل أذنيه هتافات وأصوات الناس على شاطئ الترعة، سمع كأن أحدا يقفز في الماء، كان الظلام دامسا، جاءت سيارة ووجهت مصابيحها إلى ماء الترعة حيث سقط، سمعهم يقولون، ليست عميقة، ليست عميقة، ساعدوا الرجل.

فتح شابان قويان الباب بعتلة حديدية، كان الماء قد بلغ منتصف زجاج شباك السيارة، ومحسن يحاول الخروج، جذبه الشاب الأقرب وسحباه إلى الشاطئ.

تجمع حوله الناس، تفحص نفسه، لم يكن به خدش واحد، نظر في ساعة يده، كانت متوقفة لأول مرة منذ اشتراها، سألهم عن الساعة، قالوا إنها السابعة .

وصلت سيارة نصف نقل، مجهزة لانتشال ورفع السيارات التي تقع لها حوادث طرق، وأخرجوا سيارة محسن، خارج الترعة بمساعدة الناس المجتمعين في موقع الحادث، ثم سحبوها لأقرب ميكانيكي، وأدعية شيخ فلاح بينهم تنهمر كالمطر.

عاد محسن لبيته في سيارة أجرة، ولما رأته زوجته مبتلا ووجهه أصفر من الفزع، وحكى لها، لطمت خديها وصرخت، فنهرها وأسكتها.

عندما استحم، لم تجد به أي إصابات، فعلمت أن الله كتب له حياة جديدة.

تلك الليلة ظل يصلي ويستغفر، تذكر كلمة الشيخ الفلاح الذي ساعد في إنقاذه عندما قال له: رأيتك تندفع بسيارتك بسرعة كبيرة، لماذا هذه العجلة؟

فتحجج له محسن أنه أراد السرعة في إنجاز العمل والالتزام بالمواعيد.

قال له الفلاح: لو كنت توقفت لصلاة العشاء لربما لم يقع هذا الحادث، ثم تنهد قائلا: الناس في مساجدهم والله في قضاء حوائجهم.

كان الدرس قاسيا على محسن، وتعلم ألا يشغله عن صلاته وتسبيحه أي نجاح أو مكاسب، وفي اليوم التالي اشترى عجلا متوسطا، ذبحه في الورشة بعد الفجر وفرق لحمه على الفقراء.

لكنه أصيب بدهشة عندما طلب منه أخوه أن يشترى عجلا آخر والآن ليذبحه ويوزعه على الفقراء.

لكن محسن أخبره أن الوقت لن يتسع لذلك ويمكن تأجيله لليوم التالي، رفض أخوه وأصر وترك المال بين يديه وانصرف كأن محسن خادم عنده.

وفعل محسن ما طلبه أخوه بنفس راضية، رغم غضب أولاده ورفضهم لهذا الأسلوب المستفز، لكن محسن كان في حالة سعيدة لا يشعر بها أحد.

لقد كانت التجربة مدهشة وصنعت بداخله فرحة وراحة ورغبة في تكرارها، وصار يذبح عجلا قويا ضخما ويوزعه على الفقراء كل عيد أضحى.

ذات ليلة بعدما صار رجلا ميسورا بحق، قالت له ثريا: لقد أنهى الأولاد دراستهم الجامعية، وتزوجوا كلهم.

قال لها بلطف: ماذا تريدين يا ثريا؟ أخبريني بما في قلبك.

قالت: نذهب لنحج البيت.

فجأة تذكر محسن حلمه القديم الذي أبكى عينيه يوم سمع آيات من سورة نوح في المسجد في درس العصر.

تذكر وجه أبيه وسنبلات القمح والطريق الترابي.

وعد زوجته أن يحجا معا هذه السنة، وأعطاها مائة ألف جنيه، تكلفة الرحلة كي يطمئن قلبها.

رآها دائما بقلبه وعينه أما رحيمة وقدم الخير والسعة والجندية المجهولة التي وقفت بجانبه طوال الرحلة دون يأس ولا كلل.

طلب محسن من صديق له أن يدله على شاب مؤتمن خريج تجارة ليعمل عنده محاسبا، أحضر كراسة وأخذ يكتب أسماء الفقراء والمحتاجين والأرامل والأيتام والمرضى والمعاقين، وطلب من المحاسب أن يخرج لهم مبلغا شهريا ثابتا لا ينقطع، وأوصى زوجته وأولاده بهذا الأمر.

بعد العودة من مكة المكرمة بشهرين ونصف، أحس آلاما شديدة في ظهره، ولأنه عاش عمره كله في الشقاء والعمل، لم يكن يحب الأدوية والمستشفيات، اكتفى بشراء مسكن كاتفلام، ثم تطور الأمر لحقن الأولفين، وعندما منعه الألم من الصلاة واضطر للجلوس على كرسي، استسلم وذهب لطبيب.

البيت الذي ضاع منه بسبب ثلاثمائة جنيه، أصبح أخيرا ملكا له ولأولاده بعدما أعطى لأخيه مليون جنيه نقدا.

كان ذلك الكابوس آخر الكوابيس في حياة محسن علام، ورغم محبته للحياة والثروة التي جمعها بعرقه وكده وكرم الله، فقد بدا راضيا مستسلما لمصيره المحتوم.

كانت المسبحة الجديدة في يده، وفمه يصدر صوتا ك وصوصة العصافير وهو يستغفر ربه، وكبده يصارع للبقاء في لحظاته الأخيرة، والمريء يدفع قطرات دم إلى شفتيه.

اشتدت وطأة الألم، وضع خده الأيمن على الوسادة، أخذ يردد يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني.

نطق الشهادتين، اعتدل ونام على ظهره، وعيناه جامدتان على سقف الغرفة، وزوجته وأولاده يحيطون به.

ظهرت على وجهه ابتسامة رضا أظهرت غمازتي خديه بوضوح، أصابعه قابضة على المسبحة، تراءى له وجه أبيه وهو يبتسم له، بينما يسير أمامه في الطريق الترابي الذي لم يسلكه محسن من قبل ، و تتساقط من يده سنبلات القمح الناضجة على طول الطريق.